الصهباء

مجموعة قصصية

* الكتاب: الصهباء (مجموعة قصصية)
* الكاتب: عزيز عثمان
لوحة الغلاف للفنانة: مها القليوبي
* تصميم الغلاف: صابرين عبدالهادي
* إخراج داخلي: سليل الفراعنة
* رقم الإيداع: 29491/ 2021
* الترقيم الدولي: 978-977-94-0585-8

المدير العام: عزيز عثمان
لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com
واتس آب: 01005186476
صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع

دار المنتدى للنشر و التوزيع

9 789779 405858

جميع الحقوق محفوظة لدار المنتدى للنشر والتوزيع

كل ما ورد في هذا العمل مسئولية مؤلفه، من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيلاً له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر.

(مجموعة قصصية)

الصهباء

بقلم

عزيز عثمان

دار
المنتدى
للنشر و التوزيع

إهداء

إلىٰ الروح التي أنتمي إليها...

إلىٰ الروح التي اكتشفت معها إنسانيتي...

إلىٰ الروح التي ستظل باقيةً أبد الدهر...

إهداء إلىٰ روح ٢٥ يناير... فقط.

عزيز عثمان

الفهرس

- تعريف ٧
- مقدمة المؤلف ٩
- الصهباء ١١
- العنكبوت ١٧
- انتقام ٢١
- لم يعد ثمة أحياء........................ ٢٥
- رأس السيد «هو» ٢٩
- مؤشر الإذاعات ٣٥
- إيقان ٤٣
- إطارٌ أنيق ٥٥
- ثلاث قطط ٥٩
- الانفجار ٦٥
- فنجانٌ بارد ٧١
- فانتازيا رحلة الجنوب ٧٥
- المجذوب وقائمة الثمانية ٨١
- حسنين ونوبل ٨٧
- ذات الهمة ٩٩
- إلى رشيد ١١١
- شتاء مذبحة القلعة ١١٩

تعريف

«الصـهباء» مجموعـة قصـص تتنـوع موضـوعاتها مـا بـين الاجتماعيـة والتاريخيـة والخياليـة والفانتازيـا. لا تنفصـل المجموعـة عـن همـوم المـواطن والـوطن، فهـي تتحـد بالقـارئ مـع ماضـيهِ وحاضـرهِ ومسـتقبله؛ حتمًـا سـيجد القـارئ في كـل قصـة مـا يُعـبر عـن شـيءٍ في ذاتـه، فتلـك قصـة تُحـركُ فيـه مشـاعر الحـب الرقيقـة، وأخـرىٰ تسـتحثُ فيـه روح الوطنيـة، وثالثـة تكشـف واقعـهُ المريـر، ورابعة تعصفُ بذهنهِ عصفًا.

عزيـزي القـارئ... إليـك هـذه المجموعـة إن كُنـتَ تبحـث عمـا يلائـم ذاتـك قبـل أن تبحـث عـن كتـاب تـدفع فيـه مـن مالـك ووقتـك وأفكـارك، فهـذه المجموعـة القصصـية المتنوعـة التـي بـين يـديك ليسـت إلا محـض أفكار خطها الكاتب لتقع تحت طائلة نقدك وفكرك.

مقدمة المؤلف

مع إيماني الشديد بأن الأدب القصصي العربي واقعٌ بين مطرقة الركاكة السردية وسندان اللغة المتقعرة، وبين الحفاظ علىٰ القص الكلاسيكي ومحاولات التجديد؛ إلا أنني أثق دائما في ذائقة القارئ التي تلعب دورًا هامًا في اختيار الأعمال الأدبية بما يوائم العصر، وذلك هو السبب الرئيس والعامل الأكثر أهمية في المتغيرات التي تطرأ علىٰ أدب القصة، حيث أن القصة القصيرة علىٰ سبيل المثال قد تغيرت في مظهرها وخصائصها علىٰ مدار أكثر من قرن، فعبرت عليها التجربة التجريدية لتضيف لها ثقلًا وعمقا، ومسحت عليها الفانتازيا بلمسات جمالية ورومانسية، واختطفها الخيال العلمي ليطير بها فوق آفاق المستقبل.

لذلك... فإنني أرىٰ أن الأدب القصصي بما يواجه من تغيرات اجتماعية وثقافية وسياسية في مجتمعنا العربي؛ هو الذي يسعىٰ لتطوير نفسه في أقلامنا، ولسنا من يفعل ذلك.


الصهباء

الصهباء

اعتدل فنجان القهوة المقلوب في يدي بعدما جلستُ متكئةً وفردتُ شعري الأحمر علىٰ أريكتي العجوز، أصيلةٌ تلك الأريكة التي أورثتها الجدات للأمهات، آلاف الأعوام من المسير حتىٰ امتلكناها، ميراثنا أريكة ومرآة وطاولة مستديرة، ومعهم بعض فناجين القهوة.

حدقتُ بالفنجان الذي رسمت فيه حبيبات البن الجاف تضاريس حيوات مضت، رمقتني السيدة الخمرية بعينيها البشريتين، هي إحدىٰ السيدتين المتحلقتين معي حول الطاولة المستديرة منذ القِدم، ارتعشت حين بادلتها التحديق، فها أنا ذا أشاهد مجددًا...

سألتني السيدة الخمرية إن كانت الجرأة تنقصني لأقص عليها ما أراه علىٰ جوانب الفنجان، فأجبتها:

- بل تنقصكِ أنتِ القدرة علىٰ تحمل ما أرىٰ.

ارتعبت، كُسرت عجرفتها وانكمشت على نفسها علّها تحتمي مما سوف تسمعه، فاعتدلتُ في جلستي وأنا ممسكة بفنجانها أتأمله، فقلتُ لها وأنا أنظر لوجهها الذي ينطقُ خوفا وفضولا:

- كان عليكِ التخلص من جثة الشقراء بطريقة أفضل مما فعلتِ أيتها الخمرية الحمقاء.

اتخذت الخمرية وضع الجنين ولم تنبس ببنت شفة، ربما لتحتمي وربما لتثبت براءتها من قتل رفيقتها التي ابتسمت، نعم... ابتسمت رفيقتها الشقراء قبل أن تمد يدها إلي بفنجانها المقلوب هي الأخرى، كانت تبتسم متسامحة برغم الحزن المرتسم على ملامحها، كم أكره تلك الابتسامة.

في غيبوبة اللاوجود؛ رأيتُ الشقراء في الفنجان بجناحيها وملابسها البيضاء التي تلطخت بنزف دمها المسفوك، بينما تمسح السيدة الخمرية سكينها ويدها من الدماء، ثم تلعنني وتلعنها وتطالب بالحرية، كم هي غبية، لم تشاهدني في تلك الأثناء، ربما لو كان لها عينٌ أخرى في ظهرها لرأتني أحتفل بنصري وأرقص رقصتي البذيئة.

الويلُ كل الويل... أعادتني الشقراء بابتسامتها الكريهة المتسامحة إلىٰ جب الواقع... لابد وأن أجعل شريكتي الخمرية تقتلها مرة أخرىٰ، سأجعلها تقتلها وتقتلها وتقتلها، وسأجلس وحدي علىٰ الأريكة، حينها سأعتلي رأس شريكتي، لكن الشقراء باغتتني قائلة:

- لماذا ترغبين في قتلي يا صاحبة الشعر الأحمر؟! لماذا تريدين الانفراد بها؟! نحن شركاء يا عزيزتي، أنا لم أجبرها علىٰ شيء وكذلك أنتِ؛ فأنا أنصحُ وأنتِ توسوسين، أتعتقدين أن تلك الخمرية الجميلة بحاجة إلينا؟! إنها كاملة بوحدتها، بل أكاد أجزم أنها ستقتلكِ لو تخليتُ أنا عنها، أنتِ لا تفهمين المعنىٰ الحقيقي للشراكة، تعتقدين أنها شريكتك، وحقيقة الأمر أنني أنا شريكتك فيها، وعلينا أن نتعاون، لكنكِ ترفضين، حسنا... سأتركها؛ لتتذوقي معنىٰ الخسارة. تستطيعين الآن قراءة فنجان السيدة الخمرية مرة أخرىٰ.

«لم أفهم مقصد الشقراء منذ البداية، هل تعني؟! لا... لن أقبل بشريك، إما أنا وإما فلا»

قبل أن أمسك بفنجان الخمرية مرة أخرىٰ؛ وجدت تلك الأخيرة تغرس سكينها في صدري، تقتلني وتبصقُ علىٰ جثتي، ثم تقف بيننا وتلعننا آلاف اللعنات، تلعن العظة والوسوسة معا، تهتف بالحرية. ظلت تهتف وتهتف حتىٰ ابتعدت لتقف أمام المرآة المعلقة خلف الأريكة؛ ظهر حينها انعكاس صورتها ثلاثية الأبعاد كالعادة، لكن الشقراء اختفت في المرآة، وكذلك أنا.

في غيبوبةٍ أخيرة لم يعد لنا فيها وجود؛ تجلس السيدة الخمرية وحدها علىٰ الأريكة العجوز بينما تحدق بالفنجان الوحيد علىٰ الطاولة، لكنها لم تعد تطالب بالحرية، لم تعد تطالب.


العنكبوت

العنكبوت

الطرق وعرة في أثناء النهار، وفي المساء أكثر وعورة وضيقًا وظلامًا، ووحدها السيدة الجميلة الخمرية هي من تُشعل الأفئدة والدروب، تلك السيدة التي تسكن قلب البلدة؛ فتنسج خيوطها الرقيقة من أقصاها إلىٰ أقصاها.

عاد بعد منتصف الليل إلىٰ المقهىٰ المجاور لمسكنه بوجهٍ ينطقُ بؤسًا، تفوح منه رائحة البيرة المحلية بعدما سقطت منها بعض قطرات علىٰ صدره وقميصه الأسود، سحب مقعدًا خشبيًا وامتطاه واضعًا يديه علىٰ المقعد، ثم أسند رأسه فوق يديه، بدا له الأمر كضربٍ من الجنون؛ يفكر في تلك السيدة الخمرية التي سلبت قلبه وامتلكت عقله، ظل يفكر حتىٰ قطع الصمت صوت زميل المقهىٰ العجوز سائلا إياه:

- كم من الرجال جالستهم اليوم حبيبتك الخمرية؟ كم من الرجال قرعوا الكؤوس؟ كم من الرجال شربوا الخمر في صحتها هذا المساء؟

أطبق فمه... رفع رأسهُ ناظرًا إلىٰ سقف المقهىٰ؛ فلاحت ابتسامة حبيبتهُ التي لطالما تعبّد في محراب جمالها وارتوىٰ من عذوبة روحها، اتسعت ابتسامتها حتىٰ استحالت لضحكاتٍ رنانةٍ جلجلت بين جدران أذنيه، تجهّم وجهه وتلاشت صورتها حين أعاد الرجل العجوز سؤاله:

- كم من الرجال جالستهم اليوم حبيبتك الخمرية؟

لم بنبس ببنت شفة، عاد للنظر إلىٰ الأعلىٰ مرةً أخرىٰ، سقف المقهىٰ متشقق، رث، خيوط العنكبوت المتشابكة تبعثُ في قلبهِ بعض خوف، شعر حينها وكأن الجاذبية قد انقلبت فسقط في إحدىٰ الفخاخ المنصوبة من الخيوط الرفيعة، سرعان ما استفاق وأمسك بالمقعد علهُ يحميه من خيالاته، نظر إلىٰ يمينهِ فوجد زميل المقهىٰ ينظر إليه من فوق نظارته قائلاً:

- كم رجلًا؟

فأجابهُ محتدًا:

- حبيبتي ليست بالعاهرة أو الخائنة، حبيبتي لا تنزع ملابسها لأحد

- أعرفُ ذلكَ يا فتىٰ... فحبيبتك تمنحهم الأمل فقط دون الوصول، تسعد بكلمات الحب والتقارب دون التداخل، تأخذ وتمنح المشاعر دون التلامس، قل فحسب؛ كم من الرجال؟

ضربت كلمات العجوز فؤاده حتىٰ استسلم منكسرًا:

- ثلاثة... ثلاثة من أصحاب الياقات البيضاء، لم تمسسها أصابعهم، أنا أعرف ذلك، لكنهم ثلاثة...

- بل أربعة.

قالها العجوز مُحتدًّا، ثم انصرف في هدوءٍ تاركًا زميلهُ الشاب يحدق في سقف المقهىٰ، لم يشاهد وجه حبيبته هذه المرة، بل رأىٰ أربع حشرات تلتهمهم أنثىٰ العنكبوت دفعةً واحدة، تلك الأنثىٰ التي تسكن قلب السقف، فتنسجُ خيوطها الرقيقة من أقصاه إلىٰ أقصاه.


انتقام

انتقام

في طريقـهِ مسـافرًا بالقطـار إلـىٰ العاصـمة كـي يُحاضِـر في ندوتــه العلميــة عــن تقــدم الطــب ومنظومــة التــأمين الصـحي؛ أخـذ يتملـق أحـد المسـئولين في مكالمـة هاتفيـة كـي يسـاعدهُ في الحصـول علـىٰ تأشـيرة علاجـه في الخـارج علـىٰ نفقـة الدولـة، لـم يأبـه لآلام الرجـل صـاحب السـاق المبتــورة الــذي يقــف متســولًا علــىٰ رصـيف المحطــة، وحــين أنهــىٰ المكالمــة؛ خانتــهُ نظــرات عينــاه وعــادت لتتصـادم بالسـاق المبتـورة، ألقتـهُ تلـك الأخيـرة إلـىٰ ذكـرىٰ لمحطة قطار في قريةٍ يندرُ أن ترصدها عين...

صغيرًا كان حينما استقبل والـده ذو السـاق الواحـدة بعـد أن تـرك الأخـرىٰ في إحـدىٰ المستشـفيات العامـة، كـان والـدهُ يعاني آلامًا في المعدة، فبُتِرت يمناه في غرفة العمليات.

في أثناء عودتهِ مـن السـفر بسيارته الفـاخرة التـي اشـتراها من أحد المتنطعين بالعاصمة؛ أغلق زجاج النافذة لئلا تزعجهُ مشـاهدة الأطفـال المتسـولين؛ حتـىٰ يسـتطيع مواصـلة حديثـه

الهاتفي مع صديقه عن الدور العظيم للدولة في معالجة قضية أطفال الشوارع، رغمًا عنه أحالته مشاهد الأطفال إلىٰ نفس محطة القطار القديمة، هكذا كانت نشأتهُ بين أقرانهِ المشردين بعد أن أصبح والدهُ قعيدًا.

استقبلته زوجته بترحاب شبق، أهمل ما عليه فعله وأخذ يتحدث معها عن ضرورة مواجهة الفساد الذي يستشري في ربوع البلاد، استرسل في حديثة المحتد عن هؤلاء الذين يعيثون في الأرض فسادًا، يزيفون الحقائق ويكذبون أكثر مما يتنفسون... يزيفون! يزيفون!؟

استردته تلك الكلمة إلىٰ الماضي حينما ساعده أحد الفاسدين في تزوير شهادة البكالوريوس، فأصبح بذلك في أول الطريق الذي يسمح له بالانتقام من المجتمع، وها هو الآن ينتقم من المجتمع حين يغض الطرف عن الحقائق، ها هو ينتقم من المجتمع حين يتملق، ها هو ينتقم حين يحاضر في ندوته العلمية، ها هو ينتقم حين وحين وحين.

تمت



لم يعد ثمة أحياء

لم يعد ثمة أحياء

«وحيدٌ هو»

يتأمل النجوم المتناثرة في سماء المدينة الساحلية، يرسم تناثرها لوحةً عشوائيةً من الجمالِ والجلالِ والوحشة، بينما تتشوق المقاعد الخشبية في الطرقات إلىٰ من يؤنس وحدتها ووحدته، وكذلك تتشوق ألوان إشارة المرور إلىٰ من يطيعها. لم تعد المدينة الصاخبة تعج بالمارةِ والسياراتِ والزحامِ كما كانت منذ سنوات.

«وحيدٌ هو»

منذ سنواتٍ لم يكن يتجاوز العاشرة من عمره حين اصطحبته والدته إلىٰ المكتبة، فهي أمينة المكتبة التي تحافظ علىٰ تقاليد الهدوء في المدينة الصاخبة، كانت كمن يسبح ضد التيار، وقد غرست في طفلها نفس الرغبة المجنونة، حتىٰ أنهُ ليتذكر تلك الكتب عن الحرية والاشتراكية والرأسمالية وكل ما له علاقة بمحيطات السواد، تلك الكتب التي حببتهُ والدته

وأرغمتـهُ علـىٰ قراءتهـا وهـو لـم يـزل محـض طفـل، تلـك الأوراق والكلمات التي اغتالت طفولته.

«وحيدٌ هو»

يترك المقعد الخشبي ليقف علىٰ رصيف الشارع، يتابع تبادل ألـوان إشـارة المـرور التـي لا زالـت تعمـل بعـد سـنوات الهجران، ويبتسم ساخرًا حين يطول وقـت الإشـارة الحمـراء، كم كانت هذه الإشـارة تتسبب في ضـجر سـكان المدينـة فيما مضىٰ، لكنها الآن أصبحت عقيمة وفاشلة.

«وحيدٌ هو»

يقـف مترقبًـا للإشــارة الصــفراء، هــذه هــي لحظــات الاستعداد، تـذكر شـعار الكشـافة الـذي لطالمـا حدثتـه والدتـه عنه: «كن مستعدًا» وها هو الآن يقف علىٰ أهبـة الاسـتعداد في انتظار الإشارة، أخرج يـده مـن جيـب معطفـه، قـبض بأصـابعهِ علـىٰ كفيـه، مَـالَ بجذعـه للأمـام متأهبًـا للانطـلاق، فلسـوف يطلق لساقيه العنان حين تتبدل الإشارة الصفراء، سـينطلق مـع البشر في رحلة الحرية والحياة، ولكن... سينطلق مع من!

«وحيدٌ هو»

للمـرةِ الأخيـرة، يشـاهد تبـادل الصـفراء بالخضـراء، هـا هـي الخضـراء تُعلـن السـماح لمـن يـأملون الخـوض في معركـة الحريـة والحيـاة، هـا هـي تفـتح ذراعيهـا لـه ولهـم ترحيبًا وتشجيعا...

لكنهُ آثر السكون...

فلم يعد ثمة أحياء.


رأس السيد
«هو»

رأس السيد «هو»

ورقةٌ بيضاء تلوثت ببضع كلماتٍ وحروفٍ مبعثرة، يرقدُ فوقها قلمٌ رصاصٌ بلا رأس، وشريطٌ للمهدئات وآخر لأقراصٍ مسكنة لا يعرف الفرق بينهما، فكلاهما إلىٰ الجحيم بالنسبة لهُ، فنجانُ قهوتهِ يجاور علبة السجائر الزرقاء؛ فلم تعد رئتيه تتحمل الحمراء.

أمسىٰ سقف الغرفة منخفضًا بعض الشيء، بالرغم من تخطيه لحاجز الأمتار الثلاثة فيما سبق، لكنهُ ما عادَ مرتفعا؛ ضاقت الغرفة ولم يعد يستطيع رفع رأسه، قد تكون رأسه بلا قيمة في حال انخفاض السقف، وربما لم تكن ذات قيمة من الأصل، فالمتحلقون الأموات من حوله في الغرفة يرونها بلا فائدة؛ إلا في حالةٍ واحدة، عفوا... الأموات...

أنتم لا تعرفون شيئًا عن هؤلاء الأموات! سأحدثكم عنهم الآن...

كان السيد «هو» يعيشُ مع عددٍ لا بأس به من الأموات، يرتدون أحذية رياضية في بعض الأحيان، وأحايين أخرىٰ

يرتدون أحذية جلدية خشنة، بينما لم يكن يرتدي «هو» إلا قبعة، يأكلون الكثير من أوراق البنكنوت في النهار، وحين تنسدلُ ستائر الليل يأكلون الكلمات البذيئة ويثملون علىٰ نغمات وحكايات الماضي السحيق، ثم يطلبون من السيد «هو» أن يدفنهم في أماكنهم المحببة، فيدفن أولهم داخل جهاز التلفزيون، وثانيهم في الجريدة الورقية العتيقة، أما الثالث فهو عاشقٌ للدفن في إحدىٰ المجلات، ليست أدبية بالطبع؛ بل هي من تلك المجلات التي تتلألأ علىٰ أغلفتها صورًا للحسناوات العاريات، وبين ظهر المجلة وغلافها يعاشر عشرات النساء الأموات حتىٰ الصباح.

كانت المشكلة الحقيقية دائما مع الميت الرابع، لم يكن يخلع الحذاء الرياضي من رأسهِ ليلًا أو نهارًا، وكلما حل المساء رفع الحذاء عن جبهتهِ قليلا وفرك عينه الواحدة ليسترق النظر للسيد «هو» ثم يعود ليكبسهُ مرة أخرىٰ، لم يتحدث ذلك الميت معه يومًا خشية التصادم، حتىٰ واتته الشجاعة في إحدىٰ الأمسيات؛ قال:

- أيها السيد «هو» لماذا لا تعطنا تلك القبعة يا رجل؟ لدينا مباراة في الصباح ونريد قبعتك الدائرية كي نلعب بها، أعلمُ أن الأمر ليس سهلا... لكنه حتمي.

كان السيد «هو» يعجز عن خلع القبعة من رأسه، يذكر فقط أنها تلبست رأسه حين قرأ كتابه الأول وظلت على هذا الحال، ومنذ ذلك الحين وهو يحاول جاهدا أن يقنع زملاء الغرفة أن الرؤوس لا بد لها من قبعات، وأما الأحذية فهي للأقدام، بصقوا عليه بأعينهم آلاف المرات، لكن أحدهم اليوم يطلب منه أن يأخذ قبعته.

ذهب معهم في الصباح إلى الملعب، عشرات الآلاف من المشجعين في انتظار المباراة، يرتدون أحذية بكافة الأشكال والأنواع، لكنهم جميعًا يلوذون بالصمت، يكتمون أنفاسهم، يترقبون، بفارغ الصبر ينتظرون وصول السيد «هو»

وصل الفريقان والحكام إلى أرض الملعب، اقترب موعد المباراة، وما زالوا في انتظار الحصول على قبعة السيد «هو» ولأن المباراة على وشك البدء فقد حاول بعض الأموات إقناعه بإعطائهم قبعته، نظر إليهم وأطال، أخذ يتذكر

حديثه معهم عن ضرورة ارتباط الرؤوس بالقبعات، تذكر أيضًا كيف بصقوا علىٰ كل ما أخرجهُ من قبعتهِ، أدرك أنه لن يستطيع التغلب عليهم، فقام بخلع رأسه الملتصقة بالقبعة؛ ألقاها بين رؤوسهم ورحل يغزل وينشد الشعر...

غزلتُ لهم غزلاً...

جميلاً.. رقيقًا

فلم أجد لغزلي نساجًا

فكسرتُ مِغزلي

لكن صيحات جمهور المشجعين تعالت علىٰ أشعاره، فقد أحرز أحد الأموات هدفًا، وسكنت الشباك رأس السيد «هو»

مؤشر الإذاعات



مؤشر الإذاعات

عشرون عاما مرت على أولِ حفلٍ تغنت فيه كوكب الشرق بأغنيتها الرائعة «هجرتك» في العام الأخير من خمسينيات القرن، عشرون عاما وما زال «الريس مجاهد» يعشق تلك الأغنية ويستمع إليها منصتًا كأول مرة، فمذاق البدايات لا ينضب وفرحة الرجل طوال السنوات لم تتغير مع دقات الحادية عشر مساءً بإذاعة أم كلثوم؛ ليبدأ حينها حفل الأغنية المحببة إلى قلبه ساهرًا مع زملائه في مقهى العمال، مقهى «زريق الخراط»

لا يبتعد المقهى كثيرا عن مصنع الغزل الذي يبذل فيه مجاهد كل غالٍ من عرقهِ وعمرهِ وكفاحهِ، فهو رئيس العمال والمتحدث بلسانهم أمام الإدارة، هو من يدافع عن حقوقهم مرتديًا بدلته الزرقاء الباهتة. فبعض النقاط والخطوط البيضاء قد رسمت نفسها بعشوائيةٍ على بدلتهِ الزرقاء من أثر العرق، فقد كان عرق الرجل قويًا حارقًا.

قبل بداية حفل كوكب الشرق كان الريس مجاهد قد انتهىٰ مع زملائه وصبيانه من كتابة ورقة شكوىٰ؛ سوف يتقدم بها بعد أيامٍ إلىٰ رئيس مجلس الإدارة متخطيًا بذلك العديد من درجات تصعيد المظالم، كان الرجل قد أصابهُ الملل من كثير الحديث إلىٰ رجال الإدارة.

- «لم يعد الصبر ممكنًا بعد قرارات تخفيض التمويل والمواد الخام عن المصنع، لم يعد الصمت مُرضيًا بعد خفض مستوىٰ الأمن الصناعي وصيانة الآلات والمعدات. فكيف سيستمر العمل بهذه القرارات؟! لا بد وأن المصنع سوف ينهار من جرّاءِ الخسارة المؤكدة، حتمًا سيخسر المصنع بعد تردي الإنتاج، قد يتم إيقاف العمل وربما يُباع لأحد الأثرياء الجدد، أثرياء الانفتاح والاستيراد الذين لا بد وأن لهم يدًا في تخفيض التمويل عن هذا الصرح الصناعي»

هكذا كان يحدث نفسه ويحدث زملاءه وصبيانه في المقهىٰ قبل أن يطوي ورقة الشكوىٰ ويضعها في جيب معطفه، اعتدل مبتسمًا ينظر إلىٰ «الراديو» ذلك المكعب

الخشبي الصغير في الأعلىٰ، نعم في الأعلىٰ، لا أحد يعرف سر وضع زريق الخراط للراديو فوق صندوق آخر كبير يرتفع عن الأرض مترين ونصف، ولم يكن زريق يسمح لأحد بتغيير مؤشر الإذاعات، هكذا هم أصحاب المقاهي! يقومون بتشغيل الراديو، لكنهم يصنعون مسافة كبيرة بينه وبين رواد المقهىٰ. تستطيع أن تراهن بأن أحدًا من الجالسين لم ولن يجرؤ علىٰ الاقتراب من المؤشر، وحدهُ الريس مجاهد كان يرغب في خوض تلك التجربة.

ضجيج ماكينة النسيج التي يعمل عليها الريس مجاهد كنغمات موسيقىٰ «السنباطي» تتراقص وتدق علىٰ مسامعه، يسمع. يستمع. يستمتع. يتمايلُ طربًا مع نقرات وطرقات الماكينة، يعشقُها ويرغب أحيانًا في احتضانها حين تُثمر وتأتيه بإنتاجٍ وفير، ينظر إليها حينئذ نظرة الرجل المحب لزوجته بعد أن تضع له وليدًا جديدا.

استرده صوت أحد صبيانه في المصنع من نشوته بالإنتاج واستمتاعه بضجيج معشوقته، جاءهُ الصبي مهرولًا لاهثًا يحملُ خبرين، أحدهما سارًا والآخر كارثيًا:

- يا ريس... يا ريس... زوجتك في المستشفىٰ العام؛ تضعُ لكما مولودكما الأول، لكن بعض العمال في الوردية يقولون أن الإدارة اجتمعت لإصدار قرارًا بفصلك.

انتفض الريس مجاهد واقفًا حين سمع ذلك الصبي ينطق بكلماته اللاهثة المتقطعة، لم يكن بحاجة إلىٰ تكرار ما سَمِع، لكنهُ ظل علىٰ صمتهِ بضع لحظات، أدرك وقتئذ أن ورقة الشكوىٰ التي ترقد في جيب معطفه قد وصل خبرها إلىٰ الإدارة، من المؤكد أنهم يريدون منعه من مواجهتهم، يرغبون في استئصال أي قيادة عمالية تقف في طريقهم حتىٰ تتيسر لهم عملية تخريب المصنع، في نفس الوقت كانت زوجته تجاهد لتضع مولودهما الذي طال انتظاره، فماذا يفعل ذلك المدعو مجاهد!

أسرع الرجل إلىٰ المستشفىٰ مرورًا بمقهىٰ زريق الخراط، تلفت إلىٰ ما وراءه، وقف هنيهة أمام المقهىٰ، أطال النظر، أخذ يتأمل ذلك الراديو الذي وضعه صاحب المقهىٰ في الأعلىٰ، اتخذ قرارًا بأن يذهب

ليطمئن على زوجته ووليدهما ثم يعود ليقوم بتغيير مؤشر الإذاعات، نعم، سيخوض التجربة التي راودته عن نفسها مِرارًا، سيُديرُ بيديه مؤشر الإذاعات، ولكن عليه أولًا أن يسرع الخطى إلى رئيس مجلس إدارة المصنع ليضع بين يديه ورقة الشكوى.

لم يُطِل الوقوف أمام زوجته والوليد في المستشفى العام، قبلهما وأشار محدثًا زوجته:

- انتظريني... سأكشفُ الحق... وأحافظُ على الغد... ثم أعود.

سيجارٌ بنيٌ غليظٌ بين أصابعٍ غليظة؛ إنها يد رئيس مجلس إدارة المصنع التي أشارت إلى الريس مجاهد بالانصراف بعدما تسلم منه ورقة الشكوى، وقبل أن يخرج الريس مجاهد لمح الرجل ذو الأصابع الغليظة يُشعل السيجار ببعض نار الكبريت المستورد ومرورًا بورقة الشكوى، احترقت الورقة واحترقت معها آمال مجاهد في الحفاظ على الغد بالنهج السلمي السليم.

سَارَ ثائرًا إلىٰ مقهىٰ زريق الخراط، ولج بخطواتٍ قويةٍ وجريئة، ضرب بقدمهِ بعض المقاعد الخشبية ووقف فوق منضدة وضعها أمام الراديو، أمسك بالمؤشر وأخذ يُديره يمينًا باحثًا عن إذاعة أخرىٰ؛ لم يجد، أدار المؤشر في اتجاه اليسار؛ لم يجد، أعاد التجربة مرارًا وتكرارا، لم يجد إلا إذاعةٍ واحدة، صوتٌ واحد، رأيٌ واحد.

لم يتمالك نفسه وهو يُمسك بجهاز الراديو ويلقيه خارج المقهىٰ، أخرج الرجل كل غضبه وهو يطيح به بعيدًا بعيدا، وحين سقط الجهاز وتحطم؛ تناثرت أشلاءه؛ فسقطت وتناثرت من الراديو بضعةِ خيالاتٍ رآها مجاهد بعينيه وكأنها حقيقةٌ مجسدة، سقطت ورقة الشكوىٰ المحترقة، سقطت الإذاعة الوحيدة صاحبة الصوت الواحد، سقط السيجار الكوبي الغليظ جوار الأصابع الغليظة، سقطت أعواد الكبريت المستورد بجوار رجال مجلس الإدارة.

تمت



إيقان

إيقان

يقولون أن التكرار يقتل الإبداع، كل الأخبار الـواردة مـن «موسـكو» تتحـدث عـن انتصـارات جيشـنا الروسـي وأعـداد القتلىٰ والجرحىٰ في صفوف الأعداء، وها أنـا ذا أسـقط في بئـر التكـرار والاعتيـاد والصـمت، بـالرغم مـن حيـاتي الحافلـة الصاخبة ككاتب شهير في «بلجراد» إلا أننـي لـم أسـتطع كتابـة قصـة واحـدة منـذ أكثـر مـن شـهر، لقـد جـف قلمـي مـن أثـر الركود.

أفقدتُ الموهبة أم أن الـوحي هجـرني!؟ لـم أدرك إجابـة السؤال إلا بعد ما سافرت إلىٰ إحدىٰ القرىٰ في الجنـوب، لـم تكن سفرتي لغرض التسلية، بل كانت رحلة مـن أجـل البحـث عن الوحي الغائب، فأنا مؤلف؛ والوحي رفيقي ورفيق قلمي.

«هـذا القطـار البخـاري اخـتراعٌ غريـب، بطـيء، كثيـرُ الأعطـال، لا بـد وأنـه يأكـل الكثيـر مـن الفحـم أثنـاء الرحلـة، أراهن أنني أستطيع أن أسبق هذا القطار إذا ترجلت بجواره»

هكذا حدثتُ نفسي قبل أن أترك القطار البخاري نـزولًا في بلدة «ماجدولين» جنوب روسيا، تلك البلدة الصغيرة التي يندر أن ترصدها عين، لكنني تخيرتها دون سبب، فخرجتُ من محطة القطار لأجد أمامي فندق «بولونسكي» ذلك الكبير المتهالك، كان فيما مضىٰ أحد قصور قياصرة الفساد، وأعتقد أنه ما زال، أشحتُ بنظري فرأيتُ علىٰ مرمىٰ البصر فندقًا صغيرًا من طابقٍ واحد، لا أعلم كيف ساقتني قدماي إليه.

امرأةٌ ثلاثينيةٌ غضةّ بضة، رائعة الجمال بملابس الريف الروسي الذي يزدان بجمالها، جبهتها بيضاءٌ كالثلج ووجنتيهاورديتان، أسرتني عينيها البندقيتين وقدها الممشوق القوي، كانت أطول مني ببضع سنتيمترات، لم أهتم. سألتها عن غرفة في الفندق لسبعة أيام، فأجابت:

- علىٰ الرحب والسعة أيها السيد؟!
- فاسيلي فيكتور...مؤلف.. قاص وروائي
- مرحبًا سيد فيكتور.. وجبة الفطور مجانية للزبائن المميزين... ومن الجائز أن نتناول معًا كأسين من النبيذ بعد العشاء.

نطقت السيدة بتلك الكلمات دون أي تعبيرات في ملامح وجهها، لم تتغنج ولم تغمز، بل خرجت كلماتها صماء لا روح فيها، بالرغم من أن كلماتها توحي برغبةٍ ما!

في أول ليلة جلستُ في غرفة التدخين وحدي، يبدو أن الفندق الفقير بلا زبائن غيري، ودون مقدمات جلبت السيدة كأسَيّ نبيذ وجلست في المقعد المقابل وقالت:

- اسمي «ماجي» ورثتُ العمل عن والدتي في هذا الفندق بعد موتها في إحدىٰ تظاهرات العمال... وأعرضُ عليك نبيذًا وعشاءً مجانيًا طيلة إقامتك علىٰ أن تسدي إليَ صنيعا...

أومأتُ برأسي موافقًا وأنا أتعجب من أمرها؛ فأخرجتْ من صدريتها ورقة، ثم أكملت حديثها:

- سأقول لأهل البلدة أنك صديق «إيڤان» سأقول لهم أنك أتيت إلينا حاملًا منهُ هذه الرسالة، أطلب منك أن تقول بأنك سلمتني هذه الرسالة من العزيز إيڤان... إيڤانوف الشهير... في الحقيقة هذه رسالة مزيفة كتبتها

بنفسي... كذبة بيضاء يا سيدي... وأنت كاتب ومؤلف... ولن تُضيرك هذه الكذبة البيضاء.

- إيڤانوف!؟
- نعم... إيڤان الشهير! ألا تعرفه!؟
- لا... لا أعرف هذا المدعو، سأوافق، ولكن بعد أن أعرف محتوىٰ الرسالة.

تبسمت السيدة الجميلة وأخذت تقرأ الرسالة المزيفة:

«عزيزتي ماجي... بل عصفورتي الصغيرة ماجي... إليكِ أكتب يا قلبي.. يا حبيبتي... يا...»

قاطعتها بقولي:

- انتظري... لماذا لم يكتب الرسالة إيڤانوف بنفسه!؟ لماذا!؟ هل إيڤانوف هذا موجود بالفعل أم أنكِ تختلقين تلك الشخصية!؟ أرىٰ بعض الشعيرات البيضاء في رأسك، أنتِ امرأة بلا رجل، تتوهمين أن هناك من يرسل إليكِ رسائل الحب وتريدين مني أن أخدع أهل البلدة، يا لكِ من مسكينة حمقاء.

تعلقت عيناها بالأرض وهي تخرج من غرفة التدخين دون أن تنبس ببنت شفة، لم أهتم بأمرها وذهبتُ إلىٰ غرفتي كي أبحث عن الوحي الغائب، أريد أن أكتب قصة جديدة، فذلك هو هدفي من رحلتي إلىٰ القرية الفقيرة، لكنني وجدت نفسي أفكر مرغمًا في تلك السيدة الثلاثينية، أفكر في شخصية إيڤانوف، أهو حقيقة أم خيال!

في غرفتي مرّت بضع ساعات مزقتُ فيها الكثير من الأوراق، لغز هذه المرأة الحمقاء يسيطر علىٰ عقلي، يأسرني كما أسرني جمالها، تتملكني رغبة دؤوبة في معرفة حقيقتها. ظللتُ علىٰ هذا الحال جالسًا في صمت، وإذا بها تفتح باب الغرفة وتدنو بخطواتٍ مسرعة حتىٰ وقفت أمامي، كانت ترتدي ملابس النوم الشفافة، بدت وكأنها عارية تمامًا، بل أنها عارية بالفعل حتىٰ وإن كانت ترتدي ملابس الراهبات، عارية وضعيفة وخائفة. ثم تحدثت بصوتٍ يغلبُ عليه الحزن والبكاء:

- إيڤان حي يا سيدي، إيڤان حقيقة، إيڤان لن يموت.

لـم أشـتهها كـأنثىٰ، لكنـي اشـتهيتها كـامرأة؛ كإنسـان، تملكتنـي رغبـة قويـة في مسـاعدتها فوضـعتُ معطفـي علـىٰ كتفيهـا، لـم تسـنح لـي فرصـة الـرد؛ أطالـت النظـر إلـيَ بعينين خـائفتين تملؤهمـا كلمـات مسـجونة، وتفضـحهما رغبتهـا في البـوح بسـرٍ مـا، لكنهـا تتكـتم مرغمـة، وقبـل أن أتحـدث إليهـا بادرت هي:

- أيها المؤلف... كل أهل البلدة يعرفون إيڤان... أنـت فقط من لم تُعر هذا الأمر اهتمامًا.

ابتعدتْ ذاهبة إلىٰ غرفتها وأنا أرقب ذلك الجسـد البض الرجراج، قالت أن كل أهل البلدة يعرفون إيڤانوف، ربما أجدُ اليقينَ إذا تجولتُ في البلدة صباحًا.

أغلقـتُ بـاب غرفتـي في صـباح اليـوم التـالي عازمًـا علـىٰ معرفة الحقيقة، ترجلتُ في شـوارع البلـدة الفقيـرة أبحـث عـن حقيقة إيڤانوف؛ فكانت البداية في المقهىٰ الفقير الـذي يجـاور محطة القطار عندما جاءني العجوز «ديمتري» يحمل كوبًا مـن القهوة يصـاحبها قطعتين مـن الكعـك، كانـت ابتسـامة الرجـل

هي ما شجعتني علىٰ السؤال الذي عزمت علىٰ طرحه، سألته عن المدعو إيڤانوف فأجابني العجوز:

- عجيبٌ أمرك أيها السيد! إيڤانوف هو إيڤان خطيب ماجي، خطيبها الذي غادر البلدة منذ عشر سنوات ذاهبًا إلىٰ «موسكو» لا تقلق... فسوف يعود إلينا.

أطبقتُ فمي وابتلعتُ كلماتي وأسئلتي، لم أشأ أن أتحدث مع هذا العجوز عن الأمر ثانيةً، فأنا لستُ قلقًا علىٰ عودة المدعو إيڤانوف أو غيابه، فالأمر كله لا يعنيني، لكن ما أثار حفيظتي هي السنوات العشر! أغياب أحدهم عشر سنوات يعتبر شيئًا عاديًا!؟

خرجتُ من المقهىٰ ومررتُ بالمتجر الصغير كي أبتاع بعض الأوراق، فقد قررتُ أن أكتب عن ماجي وعن أهل البلدة، التقيتُ بابتسامة السيدة الشابة «ناتاشا» عرفتُ فيما بعد أنها ابنة الكاهن «توبوف» هي الجميلة ناتاشا التي قطعت أواصر الصلة بأبيها منذ عشر سنوات، دب الخلاف بينهما في العام السابع عشر من القرن، فعَكفتْ هي بعد ذلك علىٰ بيع الكتب العلمية في متجرها الفقير.

- سيدتي... هل تعرفين إيڤانوف ؟

قُلت ذلك بعدما أعطيتها ثمن الأوراق، هنيهةٌ من الوقت انتظَرتْ السيدة الشابة، تنهدت قبل أن تجيب:

- كم اتشوق لسماع رسالة أخرىٰ من تلك الرسائل التي يرسلها العزيز إيڤان مع أصدقائه إلىٰ العزيزة ماجي، لكن غياب الرسائل يقتل شوقنا ويمزق قلوبنا، فنحن نعيشُ علىٰ أمل عودته.

كانت علامات الحيرة تصولُ وتجولُ براسي، ما بال هؤلاء القوم الذين يعيشون علىٰ أمل عودة إيڤانوف! حاولتُ تجاهل شغفي بالأمر، لم أستطع، انتصر شغفي وفضولي في معرفة حقيقة هذا الغائب فعرجت علىٰ الفندق الكبير في البلدة، توقفتُ أمام باب فندق «بولونسكي» ذلك الآيل للسقوط؛ لأجد بعض النسوة يتحدثن عن ماجي، قالت إحداهن بصوتٍ يغلبُ عليه الحزن أن ماجي تأخرت... وربما تأخر عليها أحد أصدقاء إيڤان في إيصال الرسالة

المعتادة، بدا الحزن علىٰ وجوههن حتىٰ كادت ملامحهن تتشقق.

قررتُ العودة إلىٰ المرأة الثلاثينية، أشعر أنني علىٰ وشك تفسير ما يحدث، هرولتُ إلىٰ غرفة ماجي لأجدها أمام الباب متبسمة ندية، كأنها تنتظرني، في تلك اللحظة كانت نظراتنا بديلًا عن كل كلمات العالم، وجدتني أضع الأوراق علىٰ المنضدة الخشبية المتآكلة بينما تُمسك ماجي بالرسالة المزيفة وتقرأها كاملة:

«عزيزتي ماجي... بل عصفورتي الصغيرة ماجي... إليكِ أكتب يا قلبي.. يا حبيبتي.. يا وطني.. لا تبتئسي يا حبيبتي ولا تفقدي الأمل.. أخبري أهل البلدة أننا لا زلنا نقاتل.. أخبري ديمتري العجوز أن المقهىٰ الفقير لن يكون فقيرًا حين تنتصر ثورتنا.. قولي للسيدة ناتاشا أننا سنصلح متجرها حين نعود منتصرين.. لكننا لن نُصلح فندق بولونسكي، لن نصلحه، بل سنهدمهُ ونعيد بناؤه مدرسةً جديدةً للبلدة، فبعض الأشياء لا يمكن إصلاحها... ولكن يجب هدمها... أخبري أهل البلدة أن دماءنا رخيصة في سبيل الحرية...

أخبريهم أننا نقاتل من أجلهم... أخبريهم إلا يفقدوا الأمل في انتصار ثورتنا... واعلمي يا حبيبتي أنني فقدتُ عشرة أرطالٍ من وزني هذا الشهر.. لقد أصبحتُ رشيقًا... فمعركة الثورة تحتدم»

حين انتهت ماجي من قراءة الرسالة؛ سألتها إن كان إيڤان ما زال علىٰ قيد الحياة! فأجابت:

- ليس بالضرورة، لكن الإيمان بالأمل في عودة إيڤان هو الضرورة، وها أنت الآن تؤمن بهذا الأمل يا سيدي؛ ها أنت الآن أيها المؤلف ولأول مرة... تنطق اسمه « إيڤان » كما نطلق عليه نحن. فلم تقل إيڤانوف.

خرجت ماجي إلىٰ أهل البلدة ومعها رسالة إيڤان ، وخرجتُ أنا لكي أبتاع الكثير من الأوراق، حتمًا سأحتاج إليها؛ فمعركة الثورة تحتدم.

تمت

إطارٌ أنيق

إطارٌ أنيق

حين وطئت قدماه أرض الحارة التي تربىٰ بين أحضانها؛ سارَ في ربوعها حاملًا في صدرهِ كل سعادة العالم لحصوله علىٰ الشهادة الجامعية، تحملُ عيناهُ بعض الأسئلة عن حبيبته الغائبة، ويتوجس خيفةً من الأسئلةِ المعتادة التي تأتي بعد سيل التهاني والتبريكات من زملائه وأصدقائه وأهل الحارة، فمن المؤكد أن هناك من سيتطفل ويتعجل بمعرفة مستقبل ذلك الشاب حديث التخرج.

«الويل لهؤلاء المتطفلين! ألا يعلمون أن الطالب الذي يحصل علىٰ شهادة الليسانس في التاريخ من المؤكد وأنه سيعمل سائقًا لسيارات الأجرة»

قالها في نفسهِ قبل أن يذهب مسرعًا إلىٰ بيت أبيه ليجد العبرات تلمع علىٰ وجنتي والدته، لمح السعادة علىٰ وجهها تستحيل إلىٰ بعض الدمعات، فتغسل النفس قبل العين، ألقىٰ برأسه علىٰ صدرها فضمته وهي تتمتم ببعض آيات الشكر، ثم أومأ موافقًا في وجه

أبيه حين اقترح عليه أن يحافظ علىٰ شهادة التخرج؛ فوضعها في إطارٍ صغيرٍ أنيق.

سنوات وسنوات... ما يزال يبحث عن حبيبته الغائبة، ويبتسم كل صباح ابتسامة منكسرة وهو يقود سيارة الأجرة ناظرًا إلىٰ الإطار المُعلق الأنيق.

ثلاث قطط

ثلاث قطط

حينما شاهد قطرات الدماء تسيلُ من أصابع يمناه؛ تضاربت الذكريات وتناطحت تناطح السحاب لتجود علىٰ عقلهِ بمشاهد وأحداث عاصرها، بل كان مركزها في بعض الأحيان.

أغلق هاتفه ووضعه بجوار ساعته في جيب السترة السوداء، سار في طريقه المعتاد لتناول الإفطار في وقت الظهيرة، ها هي عربة الفول شامخة بذاتها علىٰ الجهة الأخرىٰ من الشارع، كان يجاهد في ألّا يفكر في حبيبتهِ وعلاقتهما المتوترة حين همَّ بعبور الشارع ليستمتع بطعامه الفقير من العربة الشامخة الفقيرة، لكنهُ _كعادتهِ_ لم يتمهل حينما شاهد قطة صغيرة في وسط الشارع يحيطها شبح الموت.

دفعتهُ الفطرة إلىٰ محاولة إنقاذ القطة الصغيرة التي لا يفصلها عن الموت سوىٰ بضعة أشبار، تمر السيارات من فوقها وإلىٰ جوارها بسرعاتٍ جنونية، تموءُ القطة في ذعرٍ

مُبهم، يستطيع أن يراهن بأن أحدًا لا يعرف إن كانت تستنجد أم تتعجل الموت.

عبر الشارع بجرأته المعهودة وأشار بيديه ليوقف السيارات بينما يقترب من القطة رويدًا رويدا، تذكر حينها أنه فعل نفس الفعل منذ سنوات مضت لينقذ زميلًا له من أمام مدرعة، سرعان ما أشاح بعقلِهِ لتلك الذكرىٰ؛ فلا هَمَّ له في هذه اللحظة إلا إنقاذ القطة الصغيرة.

توقفت السيارات والتهمه بعض أصحابها بأعينهم بينما انفرجت قلوب البعض ورموه بنظرات الإعجاب، لاحت أمامه نظرات الاستحسان والاستهجان قبل عقد مضىٰ، نفض الذكرىٰ وأمسك القطة بيمينهِ ليأخذها بعيدًا عن عجلات الموت، لكن القطة المذعورة لم تكن لتعلم بأن تلك اليد التي تمتد إليها هي يد الإنقاذ، هي يد الحرية والحياة، فما كان منها إلا أن عضت أصابع ذلك المنقذ، غرزت أنيابها في سبابته فصرخ من الألم وتركها مرغمًا.

لم يقوَ علىٰ الصراخ طوال الساعات الأخيرة، فكانت تلك الصرخة كضرب عصفورين بحجرٍ واحد،

صرخة الألم من أنياب القطة وصرخات أخرىٰ نابعة من القلب، فحبيبته قد غرزت لتوها في قلبه أنصال الفراق، ثم لاذت بالصمت، ولاذت القطة أيضًا بالفرار من الحياة، حتىٰ استقر رأسها تحت إحدىٰ العجلات المسرعة بينما نزف قلبه ألمًا علىٰ الفراق، لم يعلم حينئذ علىٰ أيهما عليه أن ينزف.

حينما شاهد قطرات الدماء تسيلُ من أصابع يمناه؛ تضاربت الذكريات وتناطحت تناطح السحاب لتجود علىٰ عقلهِ بمشاهد وأحداث عاصرها، بل كان مركزها في بعض الأحيان، وعادت حركة السيارات غير آبهة بالقطة التي تسلم الروح أو بقطرات الدماء التي تسيل من أصابع المنقذ.

سار شاردًا علىٰ غير هدىٰ، فكل قطرة من دمائه تسقط علىٰ الأرض تصاحبها إحدىٰ الذكريات التي تضرب عقله وقلبه معًا، فهذه القطرة تذكرهُ بحبيبته ونزيف قلبه لهجرانهما، وهذه قطرة تذكرهُ بالميدان، وتلك تذكرهُ بالخذلان، وأخرىٰ بمحاولة إنقاذ وطن؛

لم يلقَ حينها إلا نفس ما فعلته بهِ القطة المذعورة، فاليوم ماتت القطة تحت عجلات السيارات، وبالأمس ماتت حين أعلنت عليه الهجران، لكن موتها منذ سنوات كان الأكثر إيلامًا.

تمت



الانفجار

الانفجار

قرش صاغ واحد، ظل هذا القرش يعزف مُنفردًا بعد ما راح زملاءه ثمنًا لتذكرة السفر في قطار الإسكندرية، ذلك القطار القائم كالغراب الدائم على الرصيف الرابع، والذي سوف تتحرك عجلاته في تمام الثانية عشرة من منتصف إحدى ليالي تمّوز الحارّة. لا يفصل سكون القطار عن انطلاقهِ سوى عشر دقائق فقط.

وقف «أحمد» يتحسس مِعطفهُ الذي يزيد عمره على عُمّرِ صاحبه ببضع سنوات، كانت «أساور» المِعطف تدل على كُهولته كما تفضح أسنانِ الخيولِ أعمارِها، وكذلك كانت جيوب المِعطف المُهترئة دليلًا على فقر صاحبه، لم يكن معطفهُ منتسبًا متسقًا مع حرارة الشهر السابع من العام، بالرغم من عمله كمحامٍ يبحث عن حقوق العمال ويتلمّس طريق السياسة بخطواتٍ ثورية نزيهة نظيفة؛ إلّا أنهُ ظل فقيرا.

أرادَ أحمد أن يستثمر ذلك القرش فيما يُفيد قبل أن ينزلق هاربًا منه، فلم يجد غير الصبي المراهق «بلال» بائع

الجرائد الذي يصدح بصوته عاليًا لينافس صافرة القطار، ابتاع منهُ الجريدة مقابل ذلك القرش اليتيم، فأخذَ الصبي يُهرولُ ثم يجري مسرعًا مُتسارعًا كعادتهِ بجوار قطار آخر قد بدأ رحلته الرتيبة، يتسارع الصبي ليشعر بلذة الانتصار في السباق؛ ليعودَ بعد ذلك ضاحكًا كي يُخفي هزيمته، فدائمًا ما كان الوحش الحديدي ذو العجلات القاسية ينتصر علىٰ المُراهق بائع الجرائد، لكنه بعد ما باع الجريدة لذلك الشاب ذو المِعطف! كانَ يجري لسببٍ آخر!

لم تجد مقاعد القطار كثيرا من الركاب كي تؤنس وحدتها بهم، وكذلك لم يجد أحمد من يُهوّن عليه ساعات السفر الرتيبة الساكنة، ظل كذلك حتىٰ رأىٰ أمام عينيه ما جعلهُ يلفظ السكون؛ فقد جلس علىٰ المقعد المقابل لهُ رجلين، أحدهما يرتدي «طربوشًا» وملابس من طراز عشرينيات القرن الأخير من الألفية الأخيرة، وآخر يرتدي بزّة عسكرية أنيقة، لم تكن ملابسهما تعنيه، بيد أن ما استرعَ انتباههُ حقًا هو ذلك التشابه في ملامحهما، يتقاسمانِ تقاسيمَ الوجه بالعدل والقسطاس، يتأبط كلاهما جريدتين مثل التي

راحَ القرشُ ضحيتها، يبدو أن بلالًا قد وجد زبونين آخرين؛ باعهما جريدتين أُخرَيَينْ.

جلس الركاب الثلاث ينتظرون مرور الدقائق الثقيلة في صمت، وأخذ كلٌّ منهم يُطالع الصفحة الأولىٰ في الجريدة حتىٰ وقعت أعينهم جميعًا علىٰ خبرٍ واحدٍ في نفس الوقت:

«انفجار مُتوقع في قطار منتصف الليل المتجه إلىٰ الإسكندرية»

هلع الرجل ذو الطربوش وهرول إلىٰ باب العربة بينما قفز الآخر من النافذة، لكن بَطَلَ قِصّتنا ذو المِعطف المُهترئ ظل ينظر في الجريدة بتمعن؛ حتىٰ وقعت عيناه علىٰ تاريخِ صدورها، وهنا!

دقت ساعة محطة القطار لتعلن عن انتهاء اليوم الثاني والعشرين من تمّوز. وحدث الانفجار.

انفجر أحمد ضاحكًا من بلاهة زملاء القطار، فقد كانت الجريدة قديمة، يعود تاريخ صدورها إلىٰ العام السابق، العام

الحادي والخمسون وتسعمائةٍ وألف، يبدو أن الصبي بلال كان يبيع الجرائد القديمة؛ ثم يُهرول بعيدًا كأنهُ يمرح.

كانَ انفجار أحمد ضاحكًا هوَ الانفجار الوحيد في محطة القطار، ولكن من الجائز أن يكون هناك انفجار آخر قد وقع في تلك الليلة! لكنه في مكانٍ آخر! قد يكون! ثمّةَ انفجار قد حدثَ بالفعل! يعاني من آثاره أحفاد أحمد.

تمت

فنجان بارد



فنجانٌ بارد

فنجانٌ من القهوة فوق طاولة المقهىٰ، وعلىٰ المقعد الخشبي كهلٌ يرقب الشارع العتيق ومصابيحه التراثية، انطفأت بعض المصابيح فأنارت في عقله الذكرىٰ الأكبر في حياته، تلتها أخريات أصغر شأنًا، تمر الذكريات أمامهُ ممسكةً بعضها بعضًا كأطفالٍ يسيرون بانتظام خلف معلمة الفصل، فزفر متأسفًا علىٰ ماضٍ تولىٰ.

أمسك بفنجان القهوة وعاد بناظريه إلىٰ حبيبته في المقعد المقابل؛ رأىٰ في عينيها بريقُ سنوات من الحب والألم والكفاح، كانت ابتسامتها الأولىٰ في مهد التعارف علىٰ سُلّم النقابة، والثانية علىٰ سُلّم المترو، وتوالت الابتسامات صعودًا ثم نزولا، مرّت الذكرىٰ فزفر متأسفًا علىٰ ماضٍ تولىٰ.

أغمض عيناه لئلا يشاهد المزيد، أحالهُ السواد المحيط في عينيه إلىٰ رواق مظلم، حين خرج للمرةِ الأخيرة من مبنىٰ الجريدة التي لطالما احتوت كتاباته الأدبية، واشتعلت

بصولاته وجولاته الثقافية، وأنارت بلقبه حوارات الأدباء. شهيقٌ علىٰ مهل، أتبعهُ بزفرةٍ علىٰ ماضٍ تولىٰ.

وقف أمامه نادل المقهىٰ ليضع كوبًا فارغًا علىٰ الطاولة، حاول النادل إحداث بعض الضجيج ليلتفت إليه الرجل، طرق علىٰ الطاولة بأصابعه علىٰ استحياء، قرع الكوب القديم بالجديد متعمدًا، لم يجد بدًا من مواجهة الرجل بالحقيقة، فقال له بصوتٍ لا يمكن التغافل عن سماعه:

- سيدي... قهوتك أصبحت باردة، والقهوة الباردة لا تناسب هذا الوقت المتأخر من الليل.

التفت الرجل للشارع العتيق مرةً أخيرة ليجد أضواء الميديا تغمره، انطفأت بضع مصابيح أخرىٰ ولم يتبق منها منيرًا إلا القليل، ابتسم ساخرًا حين استحالت صورة حبيبته إلىٰ ذراتٍ تطيرُ في الهواء، تذكر يوم رحيلها؛ فزفر متأسفًا علىٰ ماضٍ تولىٰ، ثم ارتشف القهوة الباردة.


فانتازيا رحلة
الجنوب

فانتازيا رحلة الجنوب

في جبـال طـوروس كانـت نشـأتها، لـم تعـرف لنفسـها اسـمًا أو لقبـا، بـل ولـم تعـرف كنيتهـا أيضًـا، وكـذلك لـم تواجههـا الكثيـر مـن الاختيـارات حتـىٰ تسـير في طريقهـا نحـو الجنـوب، فقـد كانـت مسـيرتها هـي الحتميـة القدريـة الوحيدة في حياتها.

كان ميلاده أيضًـا في جبـال طـوروس، ظـل يجـوب ربـوع مسقط رأسه باحثًا عن لقب يـدعوه النـاس بـه، لكـن منحنيـات الأرض أخذت تقذفهُ يمينًا ويسارًا حتىٰ استقرت وجهتـه إلـىٰ الجنوب، فيتنقل بعذوبتهِ وعنفوانه من مدينة إلىٰ أخرىٰ، ومـن قرية إلـىٰ أخرىٰ، يهـب قوتـه لكـل مـن في حاجـةٍ إليهـا، يُقابـلُ أنـاسٌ كُثـر، يسـألهم في أن يمنحـوه لقبًـا لأنـه وُلِـدَ بـلا اسـم، يتضرع إليهم كي يمنحوه مُبتغاه، لكنهم لم يفعلـوا، تبسـموا في وجهه قائلين:

- إذا أردت أن يكـون لـك اسـمًا ولقبـا!؟ فلتـذهب إلـىٰ بابل.

يسوقها الأمل نحو قدرها في رحلة الجنوب، تخترق البيد وتتلمس رمالها بحنو؛ فتستحيلُ بلمساتها صفحة الصحراء إلىٰ چنانٍ خضراءٍ مُزهرةٍ يانعة، ترسم البسمات بريشتها الندية علىٰ ملامح البشر، أحبها الجميع، لكنهم لم يمنحوها اسمًا ولقبا هي الأخرىٰ كما كانت تأمل، فأكملت طريقها المحتوم بكل الصبر والأمل، الأمل في أن تحصل لنفسها علىٰ اسم، فهي تشعر بأنها ليست مكتملة طالما لا يستطيع أحد أن يناديها.

سار في طريقه جنوبًا حتىٰ أوقفتهُ سيدة مُسنة تتكئ علىٰ الجدار الشرقي لمدينة بابل، تبادلا النظرات هنيهة من الوقت حتىٰ بادرته السيدة قائلة:

- اقتربت كثيرًا... لكنك ستبتعد قليلا.

نظر إليها مليًا ثم طلب منها أن تمنحه اسمًا ولقبا، فذلك هو مبتغاه من الحياة، طرح علىٰ مسامعها حيرته وحزنه لأن الناس يُشيرون إليه بسباباتهم دون أن يُنادونه، لكن السيدة المُسنة لم تجب طلبه هي الأخرىٰ، أشارت صوب الجنوب وقالت:

- أكمـل طريقـك أيهـا القـوي... فلـن تجـد لنفسـك اسـمًا إلاّ حـين تلتقـي بحبيبتـك، فهـي فقـط مـن تسـتطيع أن تمنحـك مـا تريـد، هـي مـن سـتكتمل بك، وتكتمل بها.

حين اقتربت هي من الجدار الشرقي لمدينة بابـل كانـت السيدة المُسنة في انتظارها، تبسمت السيدة بملامح الترحـاب، وصمتت لكي تستمع إلىٰ ضيفتها:

- سـيدتي... طالـت بـيَ الرحلـة ولا زلـتُ أبحـث عمـن يمنحني اسمًا ولقبا، أشعرُ بـأن قلبي ينقصـه شـيءٌ مـا، مستسلمةٌ لقدري، سائرةٌ علىٰ غير هدىٰ، فهـلا أجبـتِ طلبي؟

ردت عليها السيدة المسنة:

- اقتربتِ كثيرًا... لكنكِ ستبتعدين قليلا

ثم أشارت السيدة صوب الجنوب وقالت:

- أكملي طريقـكِ أيتهـا الحنونـة... فلـن تجـدي لنفسـك اسمًا إلاّ حين تلتقين بحبيبـك، فهـو فقـط مـن يسـتطيع

أن يمنحك ما تبتغين، هو فقط من سيكتمل بكِ، وتكتملين بهِ.

سار الشتيتان صوب الجنوب إلىٰ أن وصلا قبيل البحر فتقابلا، وما أن رأيا بعضيهما إلاّ وامتزجت مياههما في لقاءٍ قدريٍ محتوم، في تلك اللحظات أدركا أنهما مكتملين ببعضهما، وقد تكون رحلة البحث عن الاسم أو اللقب أو الذات! ما هي إلا رحلة للبحث عن الآخر الذي سيكتمل به الأول، وهي رحلة البحث عن الحب، وما الحب إلاّ قدر.

قالت لهُ: أيها العذب... سأمنحُكَ لقب «الفرات»

فقال لها: وأنتِ... ستكونين «دجلة»

تمت

المجذوب وقائمة الثمانية

المجذوب وقائمة الثمانية

سيارات. أضواء. أصوات. أدخنة. روائح. زحام. حرارة. وبشر.

سيظل المشهد المُعتاد الذي أراه أمامي في رحلاتيَ اليومية، ستظل عيناي تؤلماني حينما تتصادم رؤاها بما يتذيّل قائمة الثمانية.

فيِ طريقيَ المُعتاد الذي ربما أصابهُ الملل مِن آثار خُطواتيَ الرتيبة؛ تتلاقىٰ نظراتي بما أكره، لا أستطيع أن أتذكر يومًا واحدًا لم التقِ فيهِ بهؤلاء المجاذيبِ في الطرقات والأزقة، ملابسهم الغريبة التي تُشعرني بالاشمئزاز، تحركاتهم الدالة علىٰ خراب عقولهم، وقد تكون دليلاً علىٰ خراب قلوبهم أيضًا.

كثيرًا ما كانت التساؤلات تطرق عقلي حينما أتابع أحد المجاذيب يُهرول وراء حافلة ركاب النقل العام، تتسارع الحافلة كالمعتاد ولايزال ذلك المجذوب الأخرق يحاول اللحاق بها، محاولاته المستمرة الدؤوبة تُأكد تعريف الغباء

للمـدعو «اينشـتاين» كـم أكـره ذلـك المجـذوب ومـن علـىٰ شاكلته، فهـمُ كثّرُ، أراهـم يترجلـون في الشـوارع غيـر مـدركين لتصـرفاتهم المريضـة، يبصـقون علـىٰ كـل شـيء، يُطلقـون صـيحاتهم المزعجـة، يحـاولون الوصـول إلـىٰ المجهـول، يُغلقون عقولهم الخربة علىٰ أفكـارٍ واهيةٍ ليس لها واقـع مـن أرض الواقع، الويل للعالم من هؤلاء المجاذيب.

في بعض الأحيان! أشعر بسعادة غامرة لأنني لا أنتمي لهؤلاء المجاذيب، فلا يمكنني أن أتصور نفسي أُهرول وراء حافلة من المستحيل أن أكون أحد ركابها، أو أن أقف أمام الأبواب التي تلحّفت مفاتيحها بالصدأ، آملًا وراجيًا في أن تتعطّفُ تلك الأبواب وتنحني لشخصي العظيم.

أكرههم، أبغض وجودهم في هذا العالم، تتغير ملامح وجهي من شدة الانقباض، يؤلمني هذا، يكادُ رأسي أن ينفجر من رؤيتهم، أشكالهم، رائحتهم، ضجيجهم، قذارتهم، فلا استطيع أن أُكمل طريقيَ المُعتاد، سأحاول تجاهلهم قدر المستطاع، سأُغمض عينايَ بعض الوقت لعل السكينةَ تتسرب إلىٰ روحي المُتعبة.

لا بأس، أشعر الآن ببعض الراحة، لكن وجهي مازال يؤلمني، لا أعلم سببًا لذلك الألم، لفحة من الهواء البارد اخترقت معطفي فجعلت جسدي النحيل يهتز، بل يرتعش ارتعاشه كأنها الصاعقة، وراحت علامات التعجب تنطِقُ حيرةً حينما حاولتُ أن أتدثر بمعطفي!

وجدتني أتساءل بيني وبين ذاتي! لماذا أرتدي معطفًا مُهلهلًا!؟ ولماذا تطاولت لحيتي في سوادٍ قذر!؟ وإلىٰ أين يأخذني طريقي!؟ وما كل هذه الأتّربة التي تتوار خلفها قسمات وجهي!؟ من أنا؟

من أنا؟ ظل هذا السؤال يتردد داخل عقلي، بل يطرُق فوق عقلي كالمطرقة الدؤوبة التي لا تكف عن الطرق حتىٰ تُحطم العالم، من أنا؟

يبدو أن هؤلاء الذين أحسبهم مجاذيب ليسوا علىٰ ما كنت أظن، وقد أكونُ أنا المجذوب، يبدو حقًا أنني أنا المجذوب.

أعـترف أنـي مجـذوب، لكننـي مـا زلـت أعتقـد أن الـذين يهرولـون وراء الحافلـة! والـذين يتـذيلون قائمـة الثمانيـة! والـذين يـدورون في فلـك ذلـك المجتمـع الاستهلاكي العبثي! هم أيضا مجاذيب.

تمت.

حسنين. ونوبل

حسنين ونوبل

خمسة عشر عامًا وما زال فيروس كورونا يتربع على عرش الفيروسات الأكثر ضراوة، اندثرت حضارات وصعدت حضارات، خارت القوى العظمى في العالم، وتوجت بلدان أخرى مكانتها، انتهت رياضة كرة القدم التي لعبت بعقول البشر قديمًا، وحلت محلها مراهنات «نوبل الأكثر خطورة على العالم»

يتذكر الأستاذ «حسنين» هذه الأعوام الماضية عن ظهر قلب كلما وضع رأسه على وسادته ليلًا، ينظر إلى سقف الغرفة فيتحول السقف الأبيض إلى شاشة عرض سينمائي، كان حسنين في النصف المشرق من عشرينيات عمره حين اصطحب حبيبته «جهاد» ليشاهدا سويًا آخر فيلم تم عرضه في سينما «مترو» كان ذلك منذ زمن قبل أن تغلق جميع دور عرض السينما أبوابها.

حضر حسنين الحفل الصاخب لمراهنات نوبل هذا العام، بالتأكيد سيفوز فيروس كورونا بالجائزة الأولى دون

منافسة تذكر هذا العام أيضًا، وفي حضور مندوبين عن الفيروسات الأخرىٰ سيحصل فيروس «سارس الأصلي» علىٰ المركز الثاني كالعادة، ولذلك فقد التف البعض حول مندوب كورونا قبل إعلان النتيجة، يصفقون ويهنئون ويهللون، لكن الأستاذ حسنين جلس بعيدًا وحيدًا، شعر بغصة في قلبه تعاطفًا مع فيروس سارس، أدرك ما يشعر به سارس صاحب المركز الثاني، يعرف حسنين ذلك الشعور الأليم جيدًا، فقد كان زملكاويًا فيما مضىٰ.

أراد حسنين أن يختلي بنفسه رغم صخب الحفل، لكنه شاهد ما أثار دهشته، شاهد في الحفل سيدة ثلاثينية ترتدي قبعة زرقاء وفستان أزرق يضيق في الوسط بشكلٍ مثير، لم يكن هذا الأمر معهودًا في حفلات نوبل، لكن الرجل اكتفىٰ بالمشاهدة، فقد كان الأستاذ حسنين ينتمي إلىٰ الطائفة الثالثة، طائفة «عدم الانحياز» ... عفوًا... أنتم لا تعرفون شيئًا عن طائفة عدم الانحياز أو الطائفتين الأخريين.

كانت الأعوام الماضية كفيلةً بتقسيم العالم إلىٰ طوائف، الأولىٰ هي طائفة «ذيكا الأزرق» مليون نسمة، يرتدون قبعات

زرقاء، وقد نشأت من بعض أصحاب العقول الراجحة، فحين بدأ فيروس كورونا في التحور الخامس والعشرين والانتشار حاصدًا أرواح البشر أسرع من السنوات الأولىٰ! ظهرت هذه المجموعة التي تنادي بالانعزال والترشيد، الترشيد في كل شيء، حتىٰ في إنجاب الأطفال. الاقتصاد منهار والتعليم وصل إلىٰ الحد الأدنىٰ، أساسيات الحياة أصبحت صعبة المنال، فلماذا ينجبون أطفالًا كُثر في هذا العالم المتردي!

الطائفة الثانية هي طائفة «غيبا» وهي الغالبية العظمىٰ من البشر، لا يأبهون لشيء، يتكاثرون كما الأرانب ويشاركون بالمراهنات حول جائزة نوبل الأكثر خطورة علىٰ العالم، ويخسر العديد أموالهم لأنهم يراهنون دائمًا علىٰ فيروس سارس.

كان حضور حسنين للحفل بصفتهِ أحد قيادات مجموعة عدم الانحياز، لا يشارك في أي شيء، لكنه متواجد فقط، ولذلك اكتفىٰ بالمشاهدة حين رأىٰ سيدة مثيرة من طائفة ذيكا الأزرق في حفل نوبل الذي تقيمه طائفة غيبا،

تساءل فقط بينه وبين نفسه: لماذا جاءت تلك الجميلة المثيرة إلىٰ حفل غيبا! وكالعادة لم يعر اهتمامًا لهذا التساؤل، حتىٰ فوجئ بهذه السيدة تعتلي منصة مسرح جوائز نوبل وتخطف الميكروفون عنوة ثم تتحدث قائلة:

- شعب غيبا الطيب... أبحث عن رجل ثلاثيني يسمىٰ حسنين... كان حبيبي منذ خمسة عشر عامًا قبل أن نفترق بسبب أزمة كورونا... لم أره منذ التقينا في سينما مترو... أين أنت يا حبيب عمري؟ أين أنت يا حسنين؟

حينها... حل الصمت فوق رؤوس الحضور، حتىٰ قطع حسنين ذلك الصمت بصياحِ قائلًا:

- هنا... أنا هنا يا جهاد... أنا هنا يا حبيبتي.

التقيا بعد سنينٍ طوال، صعد حسنين إلىٰ المنصة ووقف أمام جهاد، يتابعهما ويسمع كلامهما كل الحضور في قاعة جائزة نوبل، دار في عقليهما سؤال واحد، لكن جهاد كانت الأكثر جرأة في طرح السؤال:

- كنت يا حسنين في الأعوام الماضية؟ وإلىٰ أي الطوائف تنتمي؟ ذيكا أم غيبا؟

رد عليها حسنين وقد ارتسمت علىٰ وجهه ابتسامة بلهاء:

- هذا ولا ذاك... فأنا أحد قيادات طائفة عدم الانحياز.

تعجبت جهاد ثم تجمدت وكأنها كتلة جليدية بعد أن عقدت حاجبيها، شعرت بضيق شديد حين سمعت رد حبيبها الغائب، كانت تتمنىٰ أن يجيبها بأنه ينتمي إلىٰ طائفة ذيكا، وإن لم يكن كذلك فمن الجائز أن تتقبل كونه من طائفة غيبا، فانتماءهُ لغيبا ليس عيبًا أو تقصيرًا منه، إنها قدرات عقلية لا ذنب لأصحابها في كونهم كذلك، لكن حسنين لم يكن لينتمي إلىٰ هاتين الطائفتين.

لاذت جهاد بالصمت من هول المفاجأة، أفسح ذلك الصمت مجالًا لسؤال يقف مترددًا علىٰ لسان حسنين:

- صمتكِ غريب يا حبيبتي... لكنني أريد أن أعرف... إلىٰ أي طائفة تنتمين أنتِ يا جهاد؟

رمقتـــه الســـيدة الثلاثيـــة بنظـــراتٍ كســـهام النـــار، انقبضـــت ملامـــح وجههـــا التـــي تنطـــقُ غضـــبًا بينمـــا خـــرج صوتها محتدًا:

- انتمـــائي إلـــىٰ إحـــدىٰ الطـــائفتين لا ينـــتقص منـــي شـيئا... إن كنـت في طائفـة ذيكـا فلـن أفتخـر بـذلك، وإن كنـــت في طائفـــة غيبـــا فلـــن أخجـــل مـــن نفســـي، لكننـــي في جميـــع الأحـــوال قـــد اخـــترت طريقـــي بنفســـي، ولـــم أنـــدم علـــىٰ شـــيءٍ بقـــدر نـــدمي علـــىٰ خمســـة عشـــر عامًـــا قضـــيتها أبحـــث عـــن حبيـــب وهـــب نفســـه لـــلا شـــيء، يجلـــس متفرجًـــا ويتكـــئ علـــىٰ أريكتـــه ويســـمي نفســـه أحـــد قيـــادات طائفـــة عـــدم الانحيـــاز. إليـــك عنـــي أيهـــا الرجـــل، فأنـــت وأمثالك أخطر علىٰ البشرية من فيروس كورونا.

خرجـــت جهـــاد مـــن الحفـــل تحـــت ســـمع وبصـــر جميـــع الحضـــور في القاعـــة، تجمـــد حســـنين ذاهـــلًا وصـامتًا، ظـل علـىٰ هـذه الحالـة لحظـات حتـىٰ قطـع ذلـك

الصمت صوت رئيس لجنة تحكيم نوبل، صاح الرجل في الميكروفون قائلًا:

- أيها الناس.... الفائز الأول بجائزة نوبل الأكثر خطورة علىٰ العالم هو الأستاذ حسنين قائد طائفة عدم الانحياز... فقد تبين لنا أنه أسوء من سارس وأخطر من كورونا.

تمت

ثلاثية «الرسول»

ثلاث قصص متصلة منفصلة

١- ذات الهمة

٢-إلى رشيد

٣-شتاء مذبحة القلعة

❊❊❊❊

مقدمة

رمال الصحراء الناعمة تزدادُ حرارةَ تحت قدميّ الصبي «زين» في طريقه إلىٰ ميناء رشيد؛ ليبشر والده الشيخ «مرسال» بنبأ ميلاد الذكر الثالث في أسرتهم الصغيرة، والدهُ هو ذلك الرجل الذي عرفهُ العامة بسرعته التي تفوق سرعة خيول مماليك شيخ البلد، فقد كان في شبابه أحد «المرسالجية» المُقربين المخلصين من المخلص الكبير «علي بك الكبير»

وصل زين ووقف أخيرًا أمام والده محاولا التقاط أنفاسه لتخرج الكلمات من فمه واضحة جليه:

- أنجبتْ أمي ولدًا يا أبي، أصبحنا ثلاثة يا أبي.

يبتسم الشيخ مرسال كأنه علىٰ استعدادٍ لتلقي البشرىٰ بميلاد ابنه الثالث وهو الكهل السائر في العقد الخامس من العمر، الآن اكتمل الرجاء بثلاثة أبناء.

سار زين في البيداء عائدًا بجوار والده، يمسكان برباط الخيل في طريقهما إلىٰ بيت الوالدة لرؤية الوافد الصغير، قطع الشيخ مرسال ببصره صفحة الصحراء ليتلألأ السراب وكأنهُ

مسطحٌ من المياهِ علىٰ امتدادِ البصر، أحالتهُ تلك الخُدعة الطبيعية إلىٰ ذكريات مقتبل الشباب حين كان رسولًا لسيده «علي بك» إلىٰ الحجاز أو الشام أو الصعيد، فأخذ يحدث ابنه البكر عن تلك الأيام الخوالي، وكيف أن حامل الرسائل هو ميزان الخير والشر في زمن المصاعب والشدائد، ثم أتبع نصائحه قائلا:

- أي صغيري البكر... لقد منَّ الله عليَ بثلاثةِ أبناءٍ أنت أكبرهم، ولقد ورثتُ مهنة الرسول من أبي، وسترثون ثلاثتكم مهنتي، وقد كنتُ في شبابي أصاحب أشرف الرجال؛ «أمين بك. والثائر الدمشقي. والمعلم الزيات» ستعرفهم أنت وأخويك حتمًا.

- أبي... أترانا سنكون حاملين للرسائل مثلك يا أبي؟!

- لقد حباك الله بحدة البصر والشجاعة يا ولدي، أما أخوك «طمان» فهو سريع البديهة وذو فراسة يُحسد عليها، ولا نعلم بعد علىٰ أي حالٍ سيكون شقيقك الأصغر!

- أبـي... هـل يمكنني تسـمية أخـي؟ هـل تـدعني أطلـق عليه لقب «الأمـهـر»؟
- الأمهر! لماذا يا زين؟
- أخـي طمـانٌ ذو فراسـة يـا أبـي، وأنـا حـاد البصـر ولله الحمد، فلم لا يكون شقيقنا الثالث هو الأمهر بيننا!؟
- وهل إذا لقبناه بالأمهر؛ سيكون الأمهر بينكم بالفعل؟
- ربما يكون له نصيب من اسمه يا أبتي.

عقد الشيخ حاجبيه مدهوشا، صمت هنيهة ثم ربت علىٰ كتف صغيرهِ قائلاً:

- لك ذلك يا ولدي... لك ذلك.



ذات الهمة

(١)

ذات الهمة

«أيها القائد.. أيها القائد.. سفن حربية في طريقها إلينا.. أدركنا أيها القائد.. الفرنسيس.. الفرنسيس»

قائمةٌ بشموخها، شاهدةٌ علىٰ التاريخ، ترتفع رايات القوةِ فوق سواريها وصواريها وكأنها أجنحة النسور، تبتسم صخورها الحادة في وجه الزمن بكبرياء، حتىٰ أن أمواج البحر الأبيض لتقطع آلاف الأميال؛ فقط لترتكِن وتستكين وتركع عند أسوارها. إنها قلعة قايتباي.

«زين» الشاب؛ لقبوه بالأزهري والصقار والزاجل، يدعوه أقرانه بالأزهري لأنه يدرس في الأزهر، ويدعوه العامة بالصقار لأن الله أنعم عليه بما يحظىٰ به الصقر من حدة البصر، أما والده الشيخ «مرسال» فكان يناديه... «زين الزاجل»

أضاء القمر المكتمل صفحة سماء الإسكندرية بضيائه الفضي في ليلةٍ غاب عنها ضجيج الأمواج التي تصارع

صخور القلعة، أمسىٰ البحر كفضاءٍ سرمديٍ لامعٍ يتزين فيه البدر، وكأن تلك المدينة الساحلية علىٰ موعدٍ مع الهدوء الذي يسبق العاصفة، حتىٰ دوّت صرخة لأحد حراس القلعة قطعت سكون الليل، أفاق الجميع من سباتهم علىٰ صراخ الحارس... أما قبل:

- صافيةٌ هي السماء هذه الليلة أيها القائد
- صافيةٌ وهادئةٌ يا «زين» ما أسعدك بهذا الصفاء، هل تستطيع حقًا أن ترىٰ الجانب الآخر من البحر؟ أتستطيع رؤية اليابسة في أوروبا؟
- سيدي... هذه أحاديث وخيالات العامة، لقد حباني الله بحدة البصر، لكن ليس إلىٰ أوروبا، ولكنني...
- انتظر يا زين، فهناك صياح في علية القلعة، هل تسمع هذا...

« أيها القائد.. أيها القائد.. سفنٌ حربيةٌ في طريقها إلينا.. أدرِكنا أيها القائد.. الفرنسيس.. الفرنسيس»

لم يعد الليل هادئا، ولا يعرف أحد كيف ظهرت السحب في السماء كأنها علىٰ موعد، ولا كيف دبت الروح في

عاصفةٍ اقتلعت إحدىٰ رايات قلعة قايتباي لتطيح بها بعيدًا بعيدا، لم يكن هذا البعيد إلا مقدمة السفن الحربية التي تسكن تحت إمرة القائد الفرنسي «نابليون بونابرت»

خرج الشيخ مرسال من منزل السيد محمد كُريّم بعدما التقىٰ بجمعٍ من شيوخ الإسكندرية حاملاً في يمناه بعض اللفائف الورقية، وما أن عاد إلىٰ منزله حتىٰ وقف أمام ولده زين، رمقه بنظراتٍ مرتجفة قبل أن يضع في يديه مطويتين، أمسك بذراعيه مستندًا ثم قال:

- ولدي... أيها الفتىٰ الزاجل... إليك هاتين المطويتين، إحداهما عليك أن تسرع بها إلىٰ شيخ البلد «مراد بك» ليعلم أن الفرنسيس علىٰ وشك احتلال الإسكندرية ولا تنتظر منه ردًا، أما الرسالة الأخرىٰ ففيها الإنقاذ والخلاص، اذهب بها إلىٰ «الثائر الدمشقي» في حانوت المسابك علىٰ أطراف حي الغورية... اذهب يا ولدي ولا تفارق الدمشقي. إلىٰ الأزهر، إلىٰ القاهرة يا ولدي.

ساد الصمت بين الفتىٰ الزاجل ووالده الشيخ مرسال هنيهة من الوقت؛ أدرك خلالها الفتىٰ ما هو مُقدمٌ عليه، فالشيخ مرسال لا يكلفه بمهمة كتلك بديلاً عن الحمام الزاجل إلاّ خوفًا وحرصًا علىٰ سرية الرسالة، وقد ينتظره هنالك أكثر من مجرد توصيل رسالة. هَمَّ بالإسراع إلىٰ جواده ليطير فوق أجنحة الريح إلىٰ الدمشقي، ومن فوق ظهر جواده قبل أن ينطلق رفع قبضتهِ عاليًا وصاح:

- أنا لها يا أبي... أنا لها.

جوار النيل إلىٰ قاهرة المعز تتلاحق قوائم الجواد، لم يكن هناك آثارًا لحداويه علىٰ الأرض، يكاد ألّا يلامسها من فرط السرعة، لم يعرف زين أنه وصل إلىٰ مشارف القاهرة قبل أن يطأ نابليون شاطئ الإسكندرية، وهكذا بدأت مقاومة الاحتلال قبل الاحتلال.

تُدعىٰ «ذات الهمة» كثيرًا ما تساءلت في نفسها لماذا أطلق عليها جدها «علي بك الكبير» هذا الاسم، كان يومًا ما شيخًا للبلد قبل أن تصير مشيخة البلد في يدي أكثر الرجال

خسةً، وذا هي ذات الهمة التي أتمت العشرين ربيعًا تقف جوار الثائر الدمشقي بعدما فارقهُ الشباب، هو الثائر الذي كفلها منذ أبصرت الدنيا بعينيها اللوزيتين الجميلتين، تلكما العينان اللائي تعجز الكلمات عن وصفهما، وقد عجز الفتىٰ زين عن الحديث حين رآها لأولِ مرة، هالةٌ من الحُسن لوجهٍ ملائكيٍ مستدير.

استعاد الفتىٰ رباطة جأشه وسلم الرسالة إلىٰ الدمشقي دون أن ينبس ببنت شفة، فأشار الرجل إلىٰ ذات الهمة لتقرأها...

«السلام عليكم آل المحروسة. من شيوخ الإسكندرية إلىٰ السادة شيوخ الأزهر الشريف ومنارة الإسلام الحنيف، نُعلِمُكُم بأن الفرنسيس قد طغوا وبغوا، ولم يعد لأمراء المماليك من قوةٍ ولا عزّة، فقد انقضىٰ عهد غلبتهم وفروسيتهم، ولا ملجأ لنا إلاّ أن يعيننا المولىٰ علىٰ مقاومة الفرنسيس، سنظل نقاومهم إلىٰ أن ندحرهم عن بلادنا أو نهلك دون هذا الأمر، اتحدوا... فإنهم قادمون إليكم»

أمسك الدمشقي بالرسالة وهو يركض صوب الجامع الأزهر ليضعها في أيدي من أُرسلت إليهم بينما ركضت ذات الهمة إلىٰ حي الغورية، وقف زين ذاهلًا لا يعرف ما عليه أن يفعل، فانتظر عودة الدمشقي ليلزمهُ ولا يفارقهُ كما أمرهُ الشيخ مرسال، وحين عاد الدمشقي في المساء لم يجد ذات الهمة، بحث عنها في بيوت الجوار والحوانيت وأزقة الحي العتيق؛ فلم يجد لها أثرًا، غابت الفتاة وقد سرقت قلب الفتىٰ دون أن يتحدثا معًا، فقال زين للدمشقي الذي وقف حائرًا أمام الحانوت:

- أستطيع أن أساعدك في العثور عليها يا عماه، فلنذهب إلىٰ مكانٍ عالٍ، أستطيع أن أرىٰ مدينة القاهرة كلها و...

قاطعه الدمشقي بكلماتٍ سريعةٍ ومتلهفة:

- نعم... نعم أيها الصقار... لقد حدثني والدك الشيخ مرسال عن حدة البصر التي أنعم الله عليك بها... فلنصعد إلىٰ مئذنة الأزهر.

صعدا معًّا ووقفا أعلىٰ المئذنة، ضاقت عينا زين الصقار باحثًا عن صاحبة العينين اللوزيتين، لم يكن العثور عليها بالأمر الصعب لهذا الفتىٰ الصقار، فشكر الله لهذه النعمة قبل أن يقول للدمشقي أنه يراها الآن بين جمعٍ من الناس في حي الغورية، فهبطا معًا إلىٰ أزقة الغورية يبحثون عنها، لكنهم لم يجدوا للفتاة ثمة أثر.

- أواثقٌ يا ولدي؟
- رأيتُها... أقسم أنني رأيتُها.
- إذا كنت حقًا قد رأيتَها! فكيف اختفت بهذه السرعة يا زين؟
- لا أعلم يا سيدي، عجيبٌ أمر هذه الفتاة.

دب الحزن في نفس الدمشقي بينما تعجب زين من اختفاء الفتاة، فذهبا إلىٰ منزل الشيخ داعين الله أن يمُنَّ عليهم بفضلهِ في الصباح.

في الصباح... ترجلا معًا إلىٰ قمة جبل المقطم، ذلك الجبل الذي يكشف قاهرة المعز من أقصاها إلىٰ أقصاها، لم يكادا يبلغا قمة الجبل حتىٰ صاح زين متهللًا:

- عماه... أراها الآن تقف بين جمعٍ عند مسجد بن طولون... إنها هي... فلنذهب إلىٰ هنالك الآن.

عاد الدمشقي يصاحبه الفتىٰ الصقار إلىٰ المنزل بخفي حنين، لم يجداها ولم يجيبهما أحد من أهل الحي، وكأنها جنية النهار تظهر فجأة وتختفي في لمح البصر، ومرت الليالي تلو الليالي، مئةٌ من الأيام يراها زين بأم عينيه من علية أحدىٰ المآذن، ثم تختفي دون أن يعثر لها علىٰ أثر، حتىٰ جاء الفرنسيس إلىٰ القاهرة بعد أن هزموا مراد بك ومماليكه شر هزيمة، ووضع ساري عسكر يديه علىٰ القاهرة بعد أن أعدم الشيخ محمد كُريّم في الإسكندرية، وما زال الدمشقي وزين يبحثان معًا عن الفتاة المفقودة، يراها الفتىٰ كل صباح ثم تختفي قبل أن يصل إليها، يجوب الطرقات سائلًا عن ذات الهمة، ولا مجيب.

عاد زين في ظهيرة أحد الأيام ليذهب إلىٰ حانوت المسابك بعد أن تكررت محاولاته البائسة في البحث عن الفتاة التي ملكت قلبه ثم اختفت، وما أن اقترب من حي الأزهر حتىٰ سمع صراخ نساء الحي، رأىٰ عسكر بونابرته

يلقون القبض علىٰ الدمشقي وعلىٰ بعضٍ من شيوخ الأزهر، يحطم العسكر أبواب الحارات في أحياء المحروسة، يهتكون حرمات البيوت والحوانيت والمساجد، يسلبون أموال الناس باطلًا بحجة الضرائب، يلقون القبض علىٰ كل من يعارضهم من الشباب والشيوخ والنساء والاطفال.

«لم يعد الأمر محتملًا، ولكن كيف سيتوقف الفرنسيس عن تلك الجرائم التي يرتكبونها، إنهم يملكون أسلحة لا قِبَلَ للعامةِ بها»

تفاقم الأمر إلىٰ حد الذل والمهانة، جاء الجنرال «دييوي» الذي عينهُ ساري عسكر بونابرته يمتطي جوادًا علىٰ رأس فصيل من الفرنسيس، أصدر الأمر لجنوده باقتحام الأزهر وتحطيم كل ما في طريقهم، تساءل زين بينه وبين نفسه:

«كيف نتحمل تلك المهانة! كيف لنا أن نصمت ونحني الرؤوس في وجه الطغاة! من ذا الذي يستطيع أن يجمع من العامةِ ثوارًا لمقاومة هؤلاء الفرنسيس! أين الشعب الأبي وأين الشباب الذي يفتدي بروحه بلاده!»

ظل زين واقفًا منكسرًا يشاهد كل ألوان الذل تجري للعامة علىٰ أيدي جنود ديبوي، حتىٰ لم يتبق للصبر مكانًا في فؤاده، فَهَمّ ليواجه الجنود المسلحين منفردًا، لم يكن ليستطيع أن ينتصر عليهم، يعلم ذلك جيدًا، لكنه آثر أن يموت مقاومًا علىٰ أن يعيش متخاذلًا، أصاب منهم البعض حتىٰ تكاثروا عليه ليقتلوه، لكنهم فوجئوا في تلك اللحظة بطوفان بشري من الشباب المصريين تتوسطهم فتاة يانعة بعينينٍ لوزيتين، انقض الشباب علىٰ الجنود الفرنسيس غير آبهين بطلقات الرصاص، يضربونهم بالنبابيت والهراوات والحجارة حتىٰ استطاع زين أن يفر من بين أيدي الجنود، واجههم مع الثوار حتىٰ دحروهم وأخرجوهم من حي الأزهر بكامله بعد أن قتلوا ديبوي، ثم نصبوا المتاريس وأغلقوا أبواب الحارات تحسبًا لهجمات الثأر علىٰ رئيسهم المقتول، دارت معركة الهمة التي روت دماء المصريين فيها بذور الوطنية... بدأت ثورة.

حينئذ... أدرك زين أين اختفت ولماذا اختفت «ذات الهمة» أدرك أن الفتاة في الأيام السابقة كانت تجمع وتشحذ

الهِمم لمواجهة المحتلين الغاصبين، تجمعُ من العامة كل من يستطيع مقامة الفرنسيس ليكونوا ثوار المحروسة، وهذا سر رؤيته للفتاة في كل مرة بين جمعٍ من الناس، وقد أدركت الفتاة لماذا أطلق عليها جدها هذا الاسم... «ذات الهمة»

أدرك ساري عسكر بونابرته أن جيشه لن يمكث في مصر كثيرًا، فهذه الهمة التي واجهها لا يمكن للمدافع تحطمها، وفي اليوم الذي خرج فيه نابليون بونابرت من مصر متسللًا! أرسل الفتىٰ الزاجل رسالة إلىٰ الشيخ مرسال يطلب منه الموافقة علىٰ زواجه من فتاة عشرينية يانعة، فتاةٌ رائعة، عيناها لوزيتان، تجمعُ العزائم وتشحذ الهمم، أطلق عليها جدها قديمًا

«ذات الهمة»

إلى رشيد



(٢)

إلى رشيد

«نـارٌ وظـلامٌ وزوابـع، سـماءٌ حمـراءٌ تمطـرُ قطـرات مـن جحـيم ملتهـب، جثـث جنـودكم مشـتعلة، بعضـها يـتراكم وبعضـها يـرتص في الحـارات والأزقـة، طلقـاتٌ وسـهامٌ لا تخطئ هدفها، وحجارة تصيب الـرؤوس مـن عَلِيّ... اهربـوا من الجحيم... اهربوا من الجحيم»

أما قبل...

ارتسمت علامات الحزن والانكسار على وجه «طمان» في أثنـاء عودتـه مـن الإسـكندرية إلـىٰ رشـيد، علـىٰ عكـس مـا كانت عليه من علامات السعادة والأمل حين ذهـب منـذ أيـامٍ حـاملاً رسـالة مـن والـده الشـيخ مرسـال في رشـيد إلـىٰ تـاجر الزيوت المعلم «زيات القبطي» في الإسكندرية.

كـان طمـان يأمُـل في الانضـمام إلـىٰ حاميـة المدينـة الساحلية ليقاوم معهم المعتـدين ويلقـون بهـم إلـىٰ البحـر كمـا

جاءوا، خاب ظنه حين فتح الخونة بوابات المدينة امام عسكر الأسطول الانجليزي.

وقف الفتىٰ أمام والده الشيخ مرسال والدموع حبيسة في عينيه، أطال الوقوف والصمت، فما كان من الرجل العجوز إلا أن احتضن ابنه الشاب ليُفرج عن بعض الدمعات الحبيسة، ربت علىٰ كتفه وسار به من الميناء إلىٰ الدار ليقص طمان عليه ما جرىٰ.

- لقد خُدِعنا يا أبي... لا أعرف كيف دخل الانجليز بيسرٍ إلىٰ شواطئ المدينة دون مقاومة، لقد خُدِعنا.
- هون عليك يا ولدي، لقد دحرنا الفرنسيس منذ أعوام، وها قد أتانا أبناء عمومتهم، ولنتوكل، ما حدث قد حدث، وما كان له إلا ليحدث، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين.

قضىٰ الفتىٰ نصف النهار يفكر في الأمر، تجول الأفكار بعقلهِ جيئةً وذهابا، فعسكر الانجليز لا بد وأنهم آتون إلىٰ رشيد، فماذا لو دخلوا المدينة وأفسدوها أو قتلوا أبرياءها!؟

لم يكد ينتهي طمان من حديثه مع نفسهِ إلا وسمع جلبة في الخارج، فها هو صوت المعلم «زيات القبطي» وصوت القائد المملوكي العجوز «أمين بك» يستأذنان الدخول ليتدبرا الأمر مع الشيخ مرسال... وما أن رآهما طمان إلا وقفز في عقلهِ شيء ما...

أطبق فمه... وذهب من فوره إلىٰ «السلانكي» حاكم رشيد، وعاد إلىٰ الدار حاملاً من الحاكم ثلاث رسائل، أولاهما إلىٰ الشيخ مرسال، والثانية إلىٰ زيات القبطي وأمين بك، تلك الرسالة تأمرهما بمرافقة طمان إلىٰ قائد الأسطول الانجليزي «ألكسندر فريزر» لتسليم الرسالة الثالثة التي تدعوه للدخول إلىٰ مدينة رشيد واستسلام حاكمها وأهلها، وقبل أن يغادر الرجال الثلاثة وقف طمان أمام والده محدثًا إياه وناظرًا إليه بكل حماس:

- الله أكبر الله أكبر... مسجد «سيدي زغلول»

قالها طمان قبل أن ينضم إلىٰ مرافقيّهِ، سار ركب الرجال الثلاثة من رشيد إلىٰ أن وصلوا لتقديم رسالة الاستسلام بين يدي قائد الانجليز، انفرجت أسارير

فريزر وهو يستمع إلىٰ رسالة أهالي رشيد، خاصةً حين علم بأن مُرافقي الرسول أحدهما قبطي يؤازره، والآخر قائد مملوكي من أعداء «محمد علي باشا»

«من حاكم مدينة رشيد ميناء النيل الكريم إلىٰ القائد الانجليزي العظيم... نعلمكم بترحيبنا بكم... وانتظارنا لكم... ولتعلموا أن المدينة خالية من الجنود، ولا يعتلي أراضيها إلا أهلها... ولسوف تلقون لدينا من الترحاب ما لم تلاقونه طيلة عمركم»

عاد ركب الرجال الثلاثة إلىٰ رشيد قبيل ساعاتٍ من دخول جيش الانجليز إلىٰ المدينة، تفرّق ثلاثتهم دونما اتفاق، فذهب أمين بك ومعه بعض من أتباعه إلىٰ ميناء رشيد ليستولوا علىٰ السفن الراسية، وذهب المعلم الزيات ليجمع قدور الزيوت، أما طمان فقد كان علىٰ الموعد.

مدينةٌ خاويةٌ علىٰ عروشها، دروبٌ خاليةٌ من المارة، أسواقٌ لا يبيع فيها بائع ولا يشتري منها شارٍ، تحسبها أطلال مدينة الأموات. تفرّق جنود الجيش بين أزقتها الضيقة مُتعجبين من رحيل أهلها، لا يسمعون

فيهـا صـوتًا، لكـنهم يتشـممون روائـح الزيـت المغلـي تتصـاعد مـن بيـوت المدينـة ومـا أن اكتظـت بهـم الـدروب حتـىٰ جـاءت الإشـارة بصـوت طمـان مـن مئذنـة مسـجد سيدي زغلول:

« أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر»

سـهامٌ مشـتعلة يلقيهـا أهـالي المدينـة علـىٰ الجنـود المنحسـرين في الأزقـة، يضـربونهم مـن فـوق أسـطح المنـازل بالحجـارة، يلقـون عليهم الزيـت المغلـي فتحـترق جلـودهم سعيرا، إنها زيـوت المعلـم الزيـات التـي وهبهـا لأهـالي رشيد ليدافعوا بها عـن أرضـهم، شـعر جنـد الانجليز وكـأنهم فئـران يُسـلخون في مصـيدة المدينـة، يسـقط أحـدهم جريحًـا فيسـقط عليه آخر قتيلا، عبثًا حاول أحدهم الفرار صارخًا:

« نـارٌ وظـلامٌ وزوابـع، سـماءٌ حمـراءٌ تمطـرُ قطـرات مـن جحـيم ملتهـب، جثـث جنـودكم مشـتعلة، بعضـها يـتراكم وبعضـها يـرتص في الحـارات والأزقـة، طلقـاتٌ وسـهامٌ لا تخطئ هدفها، وحجارة تصيب الـرؤوس مـن عَلِيّ... اهربـوا من الجحيم... اهربوا من الجحيم»

وقبـل أن يفـر... سـقط قتـيلا بسـهم المملـوك العجـوز أمـين بـك، فمـن يعتـدي علـىٰ تلـك الأرض الطـاهرة؛ لا بـد وأن يلقـىٰ عقـاب أهلهـا، بينمـا يُلاحـق طمـان بسـيفه البتـار فلـول العسـكر الهـاربين مـن جحـيم رشـيد، لـيعلم القائـد الانجليـزي أن تلـك الأرض إن لـم يكـن لهـا جـيش؛ فلهـا شعبٌ يحميها.

شتاء
مذبحة القلعة



(٣)

شتاء مذبحة القلعة

آخر أيام الشتاء.

صـرخ القائمقـام لاظ أوغلـي الـذي يقـف مجـاورًا للباشا محمد علي:

- لا... لا... إنـهُ أمـين بـك... لقـد فعلـت كـل ذلـك مـن أجل قتل هذا الرجل... وها هو يهرب ناجيًا بحياتهِ من المذبحة... الويلُ لي. الويلُ لي. الويلُ لي.

شتاءٌ غريب

شـقّت قـدماه مشـارق الأرض ومغاربهـا حتـىٰ أصـبحت طُرُقًـا ممهـدةً لسـائرِ العامـة، يجوبهـا ركضًـا أو علـىٰ صـهوةِ جوادهِ، وبعد سنواتٍ مـن الـركض أصـبح يتكـئ علـىٰ صغيره الـذي لـم يبلـغ مبلـغ الرجـالِ بعـد، فقـال لصـغيرهِ وهمـا في طريقهما إلىٰ بلاد الشام:

- أي صغيري... لم أعد أستطع للعملِ جهدًا، ولا طاقة لـي برعايتـك، وأخويـك لا عزيمـة لهمـا إلا لمقاومـة الفرنسيس في مصر، وأنا علىٰ وشك الموت ليس لي إلّا أن أُرسلكَ إلىٰ أخوالك في بلاد الشام، فهم أهلنا ونحن أهلهم، ستعيش في بيت «المرسالجية» لتشُب فيهِ بين أقرانك من حاملي الرسائل. ومِنَ الآن... سيكون اسمك علىٰ مسمىٰ: «الأمهر»

شتاءٌ لطيف

علىٰ مشارف البيداء الشرقية كانت صاحبة العشرون ربيعًا في طريقها إلىٰ منزل والدها الذي لم يُرزق بغيرها، اسمها «حُسنة» بنت أمين بك، يمشي وراءها ثلاثة حراس خصيان من مماليك والدها، وكما اعتادت أن تتلاعب بالحراسة كلما خرجت إلىٰ السوق! فعلتها مُجددًا؛ اختبأت من حُرّاسِها خلف تلٍ من الرمال السوداء، ثم أخذت تركض علىٰ الفرس التي تحمل نفس اسمها أيضًا «حُسنة» فشقّت طريقها صوب الصحاري في مرحٍ حتىٰ غابت عن عيون الحراس،

وحين عاد هؤلاء الحُرّاس إلىٰ أمين بك يجرّون ذيول الخيبة وراءهم؛ ابتسم الرجل ابتسامة سخرية من ثلاثتهم قائلًا:

- أفعلتها مجددًا!؟ لا ذنب ولا طاقةَ لكم بحراسة هذه الماكرة المرحة.

شتاءٌ عاصف

أبلغهُ زملاءه حين أتم عامهُ التاسع عشر أن شيخ بيت المرسالجية يطلبهُ لإمرٍ هام، فأسرع مهرولًا ليقف بين يدي شيخهِ مُطيعًا، فبادرهُ شيخهُ قائلًا:

- هذه رسالة إلىٰ كبير بيت لاظ أوغلي، ستجدهُ في قلعة الجبل بعد خمسة عشر يوما، لا تحتملُ هذه الرسالة من السرّية ما هو أقل من رقبتك ورقبتي أنا أيضًا، فلا تقرأها واحرص عليها كي تظل رأسك فوق كتفيك.

لم يتمهل الأمهر في السفر صوب القلعة حاملًا معه الرسالة للوزير لاظ أوغلي، تسعىٰ الرياح جاهدةً كي تُسابق هذا الأمهر علىٰ فرسهِ الذي يحمل نفس اسمه أيضًا،

«الأمهر» فلا تستطيع الرياح لذلك سبيلا، يتخفف كثيرًا من ملابسه برغم صقيع الصحاري، فيجري مُسرعًا مُتسارعًا كي يصل في موعدهِ خشية أن يصير جسدًا بلا رأس، حتىٰ سقط الجواد مُجهدًا، فجلس الأمهر جوار جوادهِ الأمهر حزينًا عليه وقلِقًا علىٰ رأسه هو.

شتاءٌ قاسي

علىٰ حافة رمال الصحراء... أخذ الأمهر يمسح علىٰ جسد جوادهِ المُجهد في حزنٍ وعجز، فلا يعرف كيف يُطبب هذا الفرس المسكين، فَقَدَ الأمل في شفائهِ وفَقَدَ الأمل معهُ في بقاءِ رأسهِ فوقَ كتفيه، ثم أخذ يُحدث نفسه قائلاً:

- إذا لم أصل مقصدي في الموعد! فسأعاقب بالقتل، وإذا قرأت الرسالة! فسأعاقب أيضًا بالقتل، وبما أنني لا بُدُ مقتولا! فما يُضيرني إن قرأت الرسالة!؟

أخرج الأمهر مطويتهِ وقرأ ما فيها:

«إلىٰ كبير بيت لاظ أوغلي... سلامنا إليكم بعد سلامنا إلىٰ الباشا محمد علي... نعلمكم بموافقتنا ومساندتنا للباشا

فيما ينوي فعله... فما بعد موت محمد بك الألفي وعثمان بك الإدريسي ما عادَ لنا من حُلفاء... فنحن نشتري التحالف بيننا وبينكم... ولن يهدأ لنا بال بغير رأس أمين بك... فهو الوحيد من بين زمرة المماليك الذي يُناصر الرعاع... فلطالما ساندَ العامةِ من الشعب علىٰ حساب ملتزمي الضرائب... ولطالما ساندَ البسطاء أمام العسكر... اقتلهُ أيها الباشا ونحن معك»

شتاءٌ جميل

بعدما قرأ الأمهر مطويته نظر إلىٰ جوادهِ في يأس، فعندما يموت الجواد سيموت الأمل، لَكِنَ الأملَ في الحياة عادَ مِن جديد حين أطلت عليهِ حُسنة بوجهٍ مستديرٍ كأنهُ البدر، أبيضٌ كأنهُ الثلج، عينان لوزيتان تحويان بندقتان مستديرتان، وشفتان... شفتان... عفوًا... فلم يُخلق لهما من الأوصافِ شيئا.

وقفت حسنة أمام الأمهر وجوادهِ الراقد صامتة، وحين رفع رأسه مُتطلعًا لهذا الوجه الملائكي! انطلق

قلبه طائرًا فوق السحاب، لكنهُ ظل علىٰ صمتهِ من روعةِ ما رأىٰ، فبادرته حُسنة قائلة:

- يا هذا... أتائهٌ أنت في الصحراء؟ أم أنكَ لا تعرف كيف تطبب جوادك؟ أم لكَ عدوٌ يزحف وراء أثرك؟

أجابها الأمهر:

- بل أن العدِو هو الوقت... أحملُ رسالةً من الشامِ إلىٰ مِصر... وإن لم أسلمها في الموعد ستطيرُ رقبتي... وهذا الجواد كما ترين؛ سيسلم الروح.

أثلجت الفتاة الحسناء صدر الأمهر بقولها:

- الأمرُ هيّن أيها الرسول، مرهقٌ هُوَ الجوادُ فحسب، وأنا أحملُ معي ما يطيبُ بهِ جوادك، فدعني أطببه!

اقتربت الفرسة حُسنة من الجواد الراقد علىٰ الأرض، طببتهُ الفتاة الحسناء ببعض الطعام والشراب والأعشاب، فقام سليمًا معافًا ووقف إلىٰ جوار الفرسة الحسناء؛ يبدو أن الخيل متحابين. فقالت الفتاة للأمهر وقد رسم الخجل حمرته علىٰ وجنتيها:

- اقتربت الشمس علىٰ المغيب... وبيت أبي ليس ببعيد.

قال لها الأمهر مُتعجبًا:

- ألستِ بخائفة؟ كيف تخرجين وحدكِ في البيداء؟

نظرت إليه حُسنة بعينين تنطِقان بالكبرياء قائلة:

- لا يجرؤ علىٰ إيذائي أحد... فأنا حُسنة بنت أمين بك.

هنا... وقع الشك في فؤاد الأمهر أن يكون والدها هو زعيم المماليك المقصود في الرسالة، هو الرجل الذي سيُقتل حتمًا إذا وصلت الرسالة إلىٰ يد لاظ الوزير، لكنه تجاهل المسألة برمتها، فلم يشغله غير تسليم الرسالة في موعدها حتىٰ يظل علىٰ قيد الحياة، ولم يكن ذهابه مع حسنة إلىٰ قلعة والدها إلّا ليستكمل رحلته.

شتاءٌ بشع

لم ينتظر لاظ بك أوغلي كثيرا أمام باب قصر الجوهرة، أدخله الحاجب سريعًا بأمرٍ من الباشا محمد علي ليعرف

مستجدات تنظيم الحفل الذي سيقام في قلعة الجبل، أشار الباشا إلىٰ الضيف بأن يتحدث، فقال الضيف:

- مولانا الباشا... لا تنشغل بالتفاصيل يا مولاي... بعد أيامٍ قلائل لن يعكر صفو حُكْمِكَ مملوكًا واحدا... فقد تلقيتُ منذ قليل رسالة من حلفاءنا في الدولة العلية بالموافقة علىٰ ما ننوي فعله... شريطة أن نقتل رجلًا واحدًا من زعماء المماليك يعلمون أنك لا تريد قتله.
- ومن يكون ذلك الرجل؟
- إنهُ أمين بك يا مولاي.
- لا... لم يكن ذلك في الحسبان... إلّا أمين بك، فأنا أرغب في بقاء هذا الرجل الصالح إلىٰ جانبي.

صمت لاظ أوغلي بعض الوقت ثم اعتلت ملامحه ابتسامة خبيثة وهو يقول:

- عفوًا مولاي... أعلم أن الرجلَ صالحا... ويُناصرهُ العامة لأنهُ يُناصر العامة... ولكن من الجائز أن نعتبرهُ من ضحايا صراعنا مع المماليك. مولاي... لن يوافق الباب العالي علىٰ ما ننتوي فعله بغير دفع الثمن يا

مولاي... والثمن هو رأس أمين بك يا مولاي... وأنا طوعُ أمرِكَ يا مولاي.

تنهد محمد علي باشا قبل أن يرد بصوتٍ حزين:

- فلتفعل ما تراه دون مراجعتي... وليكن ما يكون.

شتاءٌ كريم

لاحَ في الأفق خيالات ثلاث بينما وقف المملوك العجوز الصالح أمين بك علىٰ رأس قلعته الصغيرة يتطلع إلىٰ صفحة الصحراء، فكانَ الأمهران جوادًا وإنسانا، تصاحبهما حُسنة تمتطي حُسنة، فقالت الفتاة لوالدها وهو يقف أمام بوابة قلعتهِ الصغيرة:

- هذا عابر سبيل من بلاد الشام يا والدي العزيز... وقد تعلمنا علىٰ يديك إكرام الضيف والغريب وعابر السبيل... فلا تعاقبني علىٰ ما علّمتني إياه.

تبسّم أمين بك ونظر لابنته نظرة تسامُحٍ وهو يقول:

- لن أُعاقِبُكِ ولن أُعاقب نفسي... فهذه تعاليم الإسلام يا بنيتي... مرحبًا بعابرِ السبيل... ولتذهبي بالجيادِ إلىٰ الدوّار ليعتني بِهما السُيّاس.

تقدم الأمهر ضيفًا ليجلس مع مُضيفهُ الكريم، جاءهُ الخدم بالطعام والشراب دون أن يسأله المُضِيفُ شيئا، لكن الفتىٰ الأمهر أخذ يفكر في الرسالة التي ستقتل الرجل الكريم، فإذا وصلت الرسالة في موعدها سيكون قد تسبب في قتل من أكرمه، ولن يستطيع الرجل مواجهة قاتليه لأنهُ رجلٌ مُسن، وإذا حجب الرسالة سيكون في ذلك حتفهُ هوَ، والرسالة مختومة بختم الباب العالي، ولا سبيل لتغييرِ فحواها، فقضىٰ الفتىٰ نصف ليلتهِ ساهرًا يفكر، حتىٰ ألهمهُ المولىٰ بفكرةٍ ينقذ بها رأسه ورأس مضيفه الكريم.

قام الأمهر في الصباح مُبكرًا ليطمئن علىٰ جواده الأمهر، وجدهُ نشيطًا معافًا، يبدو أن الجواد الأمهر قد وضع بذرتهُ وقضىٰ ليلةً سعيدةً مع الفرسة حُسنة في الاسطبل. في نفس الوقت كانت الحسناء حُسنة قادمة لتطمئن بدورها علىٰ

الفرسة حُسنة، أقبلت الفتاة بجمالها الذي يمسح علىٰ الكون جمالًا، فسألت الأمهر علىٰ حين غرة:

- أذاهبٌ أنت لكي تُسلم رسالتك؟ أتود أن تُشارك في قتل الرجل الذي أكرمك؟

عَقَدَ الأمهر حاجبيهِ مدهوشًا، أخذ يفكر في كلمات الفتاة الحسناء، ثم تحسس ملابسه كي يتأكد من احتفاظهِ بالرسالة، لكن الفتاة أكملت حديثها قائلة:

- لا تخف... فلم نقرأ رسالتك ولم نقربها، فليس هذا من شِيّم الفرسان، فنحن نعلم بأن هناك رسالة آتيه من الشام تسمح للباشا بقتل والدي، لكننا لا نعرف كيف ذلك، ولسوف يذهب والدي مع مئات المماليك إلىٰ قلعة الجبل بعد أربعة أيام، وربما دبر الباشا مكيدة لقتلهِ بعيدًا عن زعماء المماليك الآخرين.

نظر الفتىٰ إلىٰ الفتاة وقد ضاقت عيناه قليلا ثم قال لها:

- إذًا... فلم نتقابل في الصحراء مصادفة!؟

- بلىٰ... لم تكن مصادفة، ولكن لا تخف، فلن يمنعك أحد من استكمال رحلتك، فوالدي أيها الأمهر هو آخر فرسان المماليك الذين يحافظون علىٰ أخلاق الفروسية، وقد تربينا علىٰ ما ربانا عليه، ونعلم أن هناك مكيدةً دُبِّرت بِلَيل، لكن والدي يُريد أن يواجه قاتليه، حتىٰ وهو علىٰ آخر عتبات العُمر.

لم يتأخر الأمهر في مُصارحة حُسنة بما ينوي فعله، فسألها:

- ماذا أنتِ فاعلة إذا أنقذت رأس والدك ورأسي في نفس الوقت؟

صبغت حُمرة الخجل وجنتي الفتاة وهي تقول:

- أكون قد احتفظتُ بوالدي وحظيتُ بزوجٍ فارس.

قبل أن يمتطي جواده ويشق طريقه صوب القلعة صاح بصوتٍ عالٍ وكلماتٍ مُقتضبة:

- انتظريني هنا عند مطلع شمس الغد، سأتبن الأمر وأعود بالخبر اليقين.

قطع الأمهر طريقهُ من الصحراء الشرقية إلىٰ القلعة ذهابًا وإيابًا في يومٍ وليلة، فوجد حُسنة في انتظاره علىٰ أحر من الجمر، توقف أمامهما قائلًا وهو لا يكاد يسيطر علىٰ أنفاسهِ:

- لا وقت للحديث، فلتُعطِ هذه الرسالة الزائفة إلىٰ والدك، رسالة تأمرهُ بألّا يحضر حفل خروج أحمد طوسون علىٰ رأس الجيشِ في قلعة الجبل، يجب أن يظلَّ والدك في قلعته الصغيرة، وليكن لقاءنا التالي ها هنا.

آخر أيام الشتاء

تزاحم الخدم يقدمون الطعام والشراب إلىٰ مئات المدعوين في قلعة الجبل، زعماء المماليك، الأرناؤوط، الانكشارية، الشراكسة، يشاهدهم قائمقام محمد لاظ مع الباشا من شرفةٍ عالية، فسأل محمد علي باشا وزيرهُ قائلاً:

- هل تأكدت من حضور أمين بك؟

فأجابهُ لاظ أوغلي واثقًا:

- بالطبع مولاي... ها هو يا مولاي يقف مُرتديًا خوذة سوداء وعباءة سوداء بجوار ممشىٰ باب العزب، ولن يكون قتله بالأمر الصعب، فهو رجل مُسن لا حيلةَ لهُ في المُقاومة.
- فلتُصدِر الأمر الآن بأن يتقدم ولدي طوسون ليسير خلفه المماليك... وما أن يخرج ولدي من باب العزب! أغلقوا الأبواب... ولتبدأ المذبحة.

صُراخٌ ورصاصٌ وعويلٌ ودماءٌ تناثرت قطراتها علىٰ الوجوه، سليل سيوف وصهيل خيول وصياح رجال، جثثٌ تتراكم لتصنع تلالًا يعتليها الأحياء قبل أن يصبحوا جثثًا أخرىٰ لتصنعَ تلالًا أخرىٰ، يُطلق الجنود رصاصاتهم من فوق الأسوار دون رحمة، وفي وسط هذه المذبحة تنشق الأرض عن فارسٍ يرتدي السواد ويمتطي جوادًا فحلًا، يشق طريقه ليسبق رصاصات الجنود في خفة، يُفسح الطريق بسيفهِ ضاربًا يمينًا ويسارا، قفز بجوادهِ ليتسلق تلال الجثث ومنها إلىٰ عليّة أحد الأسوار، فركض مُسرعًا مُتسارعًا يسحق الجنود المتراصين تحت قوائم جواده الأمهر؛ ليقفز بعدها خارج

السور الشرقي لقلعة الجبل، فيصرخ القائمقام لاظ أوغلي الذي يقف مجاورًا للباشا محمد علي:

- لا... لا... إنهُ أمين بك... لقد فعلت كل ذلك من أجل قتل هذا الرجل... وها هو يهرب ناجيًا بحياتهِ من المذبحة... الويلُ لي. الويلُ لي. الويلُ لي.

رحيل الشتاء

في طريقهم جميعًا إلىٰ بلاد الشام؛ كان الفتىٰ الأمهر حزينًا علىٰ فراق جواده الأمهر حين سقط من فوق سور القلعة، لكنهُ قد تعاهد هو وزوجته حسنة أمام والدها علىٰ العناية بالفرسة حُسنة أثناء حملها، وسيعتني هو وزوجته أيضًا بالمهر بعد ولادته، وسيكون اسم المهر علىٰ اسم أبيه... «الأمهر»

تمت.